
الدكتورة نوال السعداوي
أغنية
الأطفال الدائرية
مكتبة مدبولي
القاهرة
Bibliotheca Alexandrina
00118341



اغنية الاطفال الدائرية



د. نوال السعداوي

اغنية الاطفال الدائرية

رواية

مكتبة مدبولي ـ القاهرة

الطبعة الاولى ١٩٧٨
الطبعة الثانية ١٩٨٣

الاهداء

الى طفلي المجهول ، الذي ولدته وحدي منذ قرون ؛ وتركته بالليل في حضن الجسر، وفي الصباح وجـــدت مكانه شجرة خضراء باسقة ، جذرهـــا في الارض ، ورأسها في السماء ، شامخـــة كالالهـــة الانثى القديمة ، ربة الحياة والمـــوت •

اليه والى كـــل الشجرات الباسقات في العالم ، والى كل أطفـــال الآلهـــة اهدي هذه القصة •

نـــوال السعـــداوي



كانت دائرة من اجساد الاطفال الصغيرة تلف وتدور حول نفسهــا امام عيني ، كل يوم ، وفي اي وقت انــزل فيه من بيتي ، وصورة غنائهم الحــاد الرفيع يدور مــع حركة اجسادهم في اغنيــة واحدة ، لهــا مقطــع واحد ، يتكرر فــي دورة متصلــة لا تنقطــع :

حميدة ولــدت ولــد
سمّته عبدالصمــد
سابتــه ع الانايا (١)
خطفت راسه الحدايا (٢)
حــد يا حــد •••
يا بــوز القــرد !
حميدة ولدت ولــد

---

(١) الانايــا : القناة

(٢) الحدايا : الحداة

سمّته عبدالصمــد
سابته ع الانايــا
خطفت راسه الحدايا
حــد يا حــد •••
بابــوز القــرد
حميده ولــدت ولد
سمّته عبدالصمــد

* * *

ويكررون الاغنية • ما ان يصلوا الى الجملة الاخيرة حتى تأتي الجملة الاولى ، وما أن تنتهي الجملة الاولــى حتى تأتي الاخيرة • ولانهم يدورون ويغنون بغير انقطاع ، فلا يمكن للاذن ان تعرف بداية الاغنية من نهايتها،ولا يمكن للعين ان تعرف بداية حركتهم من نهايتها • فهم كعــادة الاطفال يمسكون بأيديهــم بعضهم البعض علــى شكــل دائــرة مغلقــة •

ولكن لا بد لي ان أبدأ القصة ، فكل شيء له بدايــة ، لكــن نقطــة البدايــة في هــذه القصة لا استطيــع تحديدها • فالبدايــة لا تبدأ بنقطة محددة ، لان البدايــة في حقيقة الامر غير موجودة او ان البداية والنهاية يتصلان

في خيط واحد دائري من الصعب تحديد اوله من آخره .

ومن هنا صعوبة البدء بشيء ، وعلى الاخص اذا كان قصة حقيقية . اي قصة صادقة كل الصدق ، دقيقة غاية الدقة . والدقة الدقيقة تقتضي من الكاتب او الكاتبة ان يراعي والا يهمل اي نقطة . ان نقطة واحدة قد تقلب كيان معنى من المعاني ، وبالذات في اللغة العربية . الذكر يصبح انثى بسبب نقطة او شرطة ، والبعل بغلا ، والوعد وغدا وهكذا .

ومن هنا لا بد ان توجد نقطة محددة ابدأ بها . والنقطة المحددة هي النقطة المحددة ، لا يمكن ان تكون شرطة او دائرة ، وانما لا بد ان تكون نقطة حقيقية، اي نقطة هندسية . وبمعنى آخر لا بد من دقة علمية في العمل الفني الجيد الذي هو هذه القصة . لكن العلم يفسد الفن ، وهذا الافساد هو بالضبط ما اريده في هذه القصة لتصبح جيدة ، أو لتصبح حقيقية وصادقة صدق الحياة الحية . وانني لأصر على هذا التعبير « الحياة الحية » اكتبه بسبق اصرار وليس من قبيل الصدفة . لان هناك حياتين : حياة حية وحياة ميتة . والحياة الميتة

كالانسان الذي يمشي على الارض دون ان يعرق ، او دون ان يبول ، او دون ان ينبعث مـن جسده شيء فاسد . الفساد والافساد والتفسد كلها اشياء ضرورية للحيـاة الحيـة ، وللانسان الحي . لا يمكن للانسان الحـي ان يحبس بوله في مثانته الى الابد ، والا مـات . حينـئذ يستطيع ان يحبس فساده في الداخل ويصبح من الخـارج جسدا ميتا نظيفـا من الناحية العلمية . اما من الناحيـة الفنيـة فان الفساد المحتبس بالداخل اشد تفسدا مـن الفساد المنطلق الى الخارج . وهـذه حقيقة او ظاهـرة طبيعيـة لا تخفى على أحد ، فان رائحة الجسد الميت اشد سوءا من رائحة الجسد الحي .

خيّل اليّ (والخيال في تلك اللحظـة كان حقيقة) ان طفـلا من الاطفال المنشدين المتماسكين بالايدي علـى شكـل دائرة تدور خرج فجأة من الدائرة . رأيت جسمه الصغير ينفصل عن الخط الدائري المنتظم فـي دورانـه كنقطـة لامعـة محددة . كنجم فقد توازنه الابـدي فانفصل عن الكـون اللانهائي ، واندفع بحركة عشوائيـة سريعـة متوهجـا بشعلة كالشهب قبل ان يحترق .

وباستطلاع غريزي تابعت عيني حركته . وحين توقف

كان قد اصبح بالقرب مني • ورأيت وجهه • لـم يكـن طفـلا ذكرا • كان انثى • لم اعرف عن يقين انهـا انثى ، فوجوه الاطفال كوجوه العجائز لا جنس لهـــا • وبيـن الطفولـة والشيخوخة مرحلـة يضطر فيها الانسان الـى الاعلان عن جنسه بوضوح اكثر •

الوجه (للغرابة الشديدة) لم يكن غريبا عليّ • كان مألوفـا بدرجة اثارت دهشتي الى جدّ عـدم التصديق • فليس من المعقول ان يخرج الانسان من بيته فـي الصباح ذاهبا الى عمله ،فاذا به يصطدم بشخص آخـر ، مـا ان يرفع وجهـه اليه حتـى يرى وجهه هو ، وليس ايّ وجه آخـر •

اعترف انجسدي ارتجّ ، نوع شديد مـن الذعـر يشلّ قدرة الانسان عـلى التفكير • ومع ذلك فكرت : يذعر الانسان حينما يرى وجهه وجها لوجـــه ؟ لعلّهـا الغرابة الشديدة ، او لعلها الالفة الشديدة• حينئذ يختلط على الانسان كل شيء ، وتصبح الاشياء المتناقضة متشابهة الى حد التماثل ، فالاسود يصبح ابيض ، والابيض اسود• ومعنى ذلك انيواجه الانسان بعينيه المفتوحتين حقيقـــة انه أعمى •

فركت عيني بأصابع مرتجفة • ونظرت في وجهه مرة ثانية ، وثالثة ، ورابعة وخامسة وربما لا زلت انظر في وجهه حتى هذه اللحظة ، وفي كل لحظة ، كأنه يلازمني كظلّي ، او يلتصق بي كقطعة من جسدي ، كذراعي أو ساقي •

والذعر بطبيعته يولد الكراهية • لا أنكر انني كرهت هذا الوجه • وقد يظنّ بعض الناس انني لست صادقة فيما أقول ، ويتساءلون كيف يمكن لانسان ما أن يكره وجهه ، او جسده ، او قطعة من هذا الجسد • وهؤلاء الناس هم ولا شك على حق • انهم اقدر مني على رؤيتي • ليست هي محنتي وحدي ولكنها محنة كل انسان • فالآخرون يرونه اكثر مما يرى نفسه • يرونه من الامام ، ومن الجانب ، ومن الخلف • يرونه من ظهره • اما هو فلا يرى نفسه الا من الوجه ومن خلال مرآة •

المرآة تظل هناك دائما ، قائمة كالشخص الاخر بين الانسان ونفسه • ومع ذلك فأنا لا اكره المرآة ، بل اكاد احبها حبا شديدا • احب النظر فيها طويلا ، والحملقة • احب ان ارى وجهي • الحقيقة اني لا امل النظر الى وجهي • فهو وجه جميل ، اجمل من اي وجه آخر رأيته

على ظهـر الارض • وفي كل مرة انظـر اليه ارى جمالا جديدا يكـاد يسحرني •

قد لا يستغرب بعض الناس هـذا الصدق الشديد ، فالصدق الشديد يصبح مقززا في بعض الاحيان ، او في كل الاحيـان • ولكني عاهدت نفسي علـى ان اقـول الصـدق • أنا ادرك ان الاستمرار في الصدق مجهـد ، يتطلب دائما مزيدا من الجهد والتضحيات • كـأن يضحي الانسان بأن يكون جميلا او مقبولا في كل لحظـة ، وان يتحمل احيانا درجة من القبح ، في نظر الناس ، اعترف انه قد يكون قبحا شديدا يصل الى حد التقزز • ولكن هذا هو الكفاح المطلوب فـي العمل الفدائي وفي العمل الفنـي الجيـد ، الذي اكتبه الآن •

بهرني في الوجه بالذات العينان ، فأنا اعشق العيون• واعتقـد (وقد يكـون اعتقادي بغير علمية معترف بها) ان عيني الانسان جهاز حساس ، بل انـه اكثر اجهزتـه حساسية ، يليه الجهاز التناسلي بطبيعة الحال • شدّتنـي الى العينين نظرة لها لمعـة متحركة في كل الاتجاهـات والزوايـا كاشعاعات فصّ الماس الحقيقي • وهي نظـرة محيّرة فعلا • لانهـا ليست نظرة واحدة ، يستطيـع

الانسان ان يحدد معناها ، نظرة حزن مثـلا ، او نظـرة فرح ، او نظرة عتاب ، او نظرة خوف ، ليستهـي نظـرة واحدة ، وانما هي نظرة متعددة النظرات ، وان بدت مـن السطح وحيدة النظرة ، الا انه سرعان ما تنطوي النظـرة الاولى وتتلوهـا الثانية والثالثة كصفحات كتاب او كطيات نسيج رقيق وضعت طبقاته الطبقة فوق الطبقة ...

انشغلت بالعينين عن بقية ملامح الوجه . لم أر الانف ولم ار الخدين ولا الشفتين ولا اليد الصغيرة التي ارتفعت في الهـواء ولوحت لي بحركة ناعمة مألوفة كأنها تعرفني .

سألتهـا : ما اسمـك ؟

قالت : حميدة

وارتفع صوت الاطفال بحركتهم واغنيتهم الدائرية بغير بدايـة او نهايـة .

حميده ولدت ولـد
سمّته عبـد الصمد
سابته ع القنايـا
خطفت راسه الحدايا
حـد يا حـد

يا بـــوز القـــرد
حميدة ولدت ولـــد

ضحكت كعـــادة الكبار حين يداعبون الصغار وقلت:

ــ يغنّــون لــك ؟ ..

لكنها لم تردّ . لانهـــا كانت قد اختفت من امامـــي في اللحظة التي اهتز فيها رأسي اثناء ضحكي . استطعت فقط ان المح ظهرها الصغير المحنـــي بعض الشيء وهـــو يختفي داخل باب خشبي داكن اللون علقت فوقه يد آدمية خشبيـــة كمطرقـــة .

لم امسك المطرقة كعادة الغرباء حين يدقون الابـــواب المغلقة . كنت اعرف طريقي ، رغم الظلمة الشديدة التـــي تقبع دائما في مداخل تلـــك البيوت ، ولان الشمس ايضا كانت قد غربت منذ زمن طويل . عن يمينـــي رأيت رأس الماعزة يطل من خلف الجدار ، وعن يساري كانت هنـــاك عتبة صغيرة مرتفعة بعض الشيء . تعثرت في العتبة كـكـــل مرة ، وكدت اسقط على وجهي لولا خفّة جسمي المعهودة وقدرته العجيبة على الاحتفاظ بتوازنه المختلّ .

ورأيتها نائمة فوق الحصيرة ، مستغرقة في النـــوم .

جفناها نصف مغلقتين ، وشفتاهـا نصف مفتوحتين ، تتنفس من فمها انفاسا عميقة كأنفاس الاطفال العميقة ، وذراعاهـا متكورتان حول رأسها ، ويدها اليمنى مطبقة على قرش او تعريفة ، وجلبابها الطويل انحسر عن ساقيها الناعمتين الرفيعتين حتى الركبتين ، ورأسها الصغير يهتز بحركة ضئيلة غير مرئية ، وفكاها الصغيران يضغط احدهما على الآخر ضغطة هيّنة توحي بلذة تذوب في فمها من قطعة الحلوى مختبئة تحت لسانها .

كان الليل مظلما بغير قمر ، والمصباح المشتعل منذ اول الليل احترق شريطه ، او نفد زيته ، فاصبح ذؤابة ضئيلة ، اطفأتها نفحة هواء قوية ، وساخنة ، اندفعت فجأة من ناحية الباب ، الذي لم يكن بابا ، فالغرفة لم يكن لها الا عتبة صغيرة مرتفعة بعض الشيء ، لكن ذؤابة الضوء كانت قد انطفأت فأصبحت الظلمة شديدة الارض كالجدار كالسقف . لا شيء يظهر في السواد الداكن الا سدّ كبير يسدّ فتحة الباب تماما فيما عدا ثقبين صغيرين مستديرين يتوسطان الرأس ، وينفذ منهما ضوء أصفر تشوبه حمرة بلون جذوة النار حين تتقد .

لم يكن الشفق قد طلع بعد في تلك اللحظة

الساقطة ما بين آخر خيوط الليل واول خيوط النهار ، فنعثرت قدمه الكبيرة الحافية في العتبة المرتفعة بعض الشيء • لكنه استعاد توازن جسده الطويل العريض ، ووثب كالفهد على اطراف اصابعه المطاطية ، ثم سار على مهل وحذر متخطيا شيئا يشبه البلغة (١)

وبالثقبين اللذين ينفذ منهما الضوء المشوب بالحمرة حدد مكانها فوق الحصيرة ، كعيني قط وحشي لم تستأنس حدتهما وقدرة حدقتيهما على الاتساع في الظلام • وحينما امتدت اصابعه الغليظة المفلطحة لترفع جلبابها عن فخذيها البيضاوين كانت لا تزال مستغرقة في النوم استغراق الاطفال ، وقد تغيّر الحلم ، وذابت قطعة الحلوى تحت لسانها ، وبدأ البائع يطالبها بالقرش ، وفتحت يدها فلم تجد قرشا ، وامسك البائع الفظ العصا وراح يجري خلفها •

كان جسدها خفيفا صغيرا يطير في الهواء كاجساد العصافير ، وكان من الممكن ان تسبق البائع (لو كانت عصفورا) لكنها احست فجأة وكما يحدث في الاحلام

(١) الحذاء بلغة الريف .

تمامـــا ان جسدها اصبح ثقيلا كأنه تحجّر على شكل تمثال تسمّرت قدمـــاه في الارض ، وثبتت ذراعـــاه بالحديـــد والاسمنت ، والفخذان اصبحتا من الرخام ، وكـــل فخـــذ شدّت الى ناحية ، وتصلبت الساقان في الجـــو منفرجتين كالمصلوب ، وضربات العصا تنهال بينهمـــا بعنف لـــــم تعرفـــه من قبـــل •

صرخت • لكـــن صوتها لم يطلع • يد كبيرة مفلطحة سدت فمها وانفها فاختنقت ، وادركت انها لا تحلم ، وان جسدا كبيرا لـــه رائحة التبـــغ ملاصق لجسدها • كانت عيناها مغمضتين ، لكنها استطاعت ان ترى ملامح الوجه ، وتدرك انهـــا تشبه ملامح ابيها ، او اخيها، او عمهـــــا ، او خالهـــا ، او ابـــن خالهـــا ، او اي رجل آخر •

وكانت حميدة تستيقظ كل صباح ككل الاطفال ناسية احلامهـــا ، وتقفز من فوق الحصيرة كالعصفور ، تجـــري الى امها ، وتشدو بصرخات الاطفال السعيدة حين يستقبلون اليوم الجديد بجسم نام حتى شبع ، ومعدة خوت حتـــى تفتحت شهيتها لكل شـــيء ، وان كـــان قطعة خبز مقـــدد تكسر الاسنان اللبنية ، او شفطة لبن من ضرع ، او قطعة مش من قاع الزلعة •

ذلك الصباح استيقظت حميدة ككل صباح، لكن الحلم لم يُنس كالاحلام السابقة ، واصابع غليظة تركت آثارا حمراء وزرقاء على ذراعيها وساقيهـا ، وضربات العصا لا تزال تؤلمهـا بين فخذيهـا ، ورائحة التبـغ لا تزال عالقة بجلدهـا .

ظنت امها انها مريضة بالحمى ، فربطت رأسها بسنديل وتركتهـا راقدة فوق الحصيرة طول اليوم ، ونامت حميدة النهار والليـل ، واستيقظت في اليـوم التالـي ، وظنت انها نسيت الحلم ، وانه ضاع في الزمن وتبخر في الهواء ؛ كأنمـا لم يكـن ، فقفزت من فوق الحصيرة قفزتهـا المعتادة ، فيما عدا ثقل خفيف في ساقيها سرعـان مـا راح حين ارتدت المريلـة وجرت مع الاطفال الى المدرسة .

كنت استطيع دائمـا ان اميز حميدة من بين الاطفال ، فالمريلـة من الدمور ، ولونهـا سمني فاتح ، عليهـا بقعة من الخلف كانت حمراء من ايام ، حين تسربت نقطة دم من سروالهـا الصغير الى المريلـة وهي جالسة في الفصل . امهـا كانت تنبههـا دائمـا لتحتاط للامـر ، وان تضع الفوطـة الدمور بعنايـة بين فخذيها ، فهي لـم تعـد طفلـة صغيرة ، وكثيرا مـا سمعت امهـا تقول : « فـي

مثل سنك تزوجت ولم يكن ثدياي قد ظهرا بعد » •

خجل كالعرق كان يندي جبهتها المستقيمة الصغيرة حين تستدير وترى البقعة فوق المريلة ، فتجري على اطراف اصابعها وتخلع المريلة وترتدي الجلباب الطويل ، وتجلس الى الطشت ، وتغسل مريلتها الوحيدة ، ثم تنشرها على الحبل في الشمس لتجف قبل اليوم التالي •

وذات يوم اصبحت المريلة ضيقة ، بصعوبة ادخلت فيها جسمها ، وبالذات من الامام ، عند بطنها • واستقرت عينا امها على بطنها بنظرة غريبة لم ترها من قبل ، ومخيفة الى حدّ ان رعدة خفيفة سرت في جسدها الصغير • والتفّت اصابع امها الكبيرة حول ذراعها النحيل وصاحت :

ـ اخلعي المريلة •

خلعتها وارتدت الجلباب ، وجلست في الشمس بجوار الحائط • كانت امها تناديها لتساعدها في العجين او الخبز او الطبخ او كنس الدار ، او كان ابوها او خالها او عمها يرسلها الى الدكان لتشتري دخانا ، او كانت خالتها او عمتها تناولها طفلها الرضيع لتحمله عنها

حتى تعــود من الحقل ، او جارتها كانت تناديهــا من فوق السطح لتملأ لهــا الجرة من البحر ، او اخوهــا او خالهــا كــان يلقي اليهــا بجوربه وسرواله القذرين لتغسلهما • وعنــد الغروب يلتفّ حولها البنات والصبيــان من اولاد الجيران فينزلون الى الشارع ويلعبون « المساكــة » ، او « عسكر وحرامية » ، او « الثعلب فات فات » او « حبــة ملــح » ،او « حميدة ولدت ولد » •

أيّ شيء من ذلك لم يحدث فــي ذلــك اليــوم • وتركوها وحدها جالسة في الشمس ، ولم تجد بدا مــن التحديق في قــرص الشمس طويــــلا • وحينمــا غابت الشمس ظلت جالسة مكانها في الظلام ، جسدها الصغيــر يرتعد • شيءمــا تحسه ولا تعرفه ، شــــيء مــا رهيب يحدث من حولها ،في الظلام ، وفي الصمت ، وفي العيون ، كــل العيون ، حتى الدجاج الذي كــان يلتفّ حــولها ، لم يقترب منهــا ، والقط الاسود الكبير الذي كــــان يتمسح بهــا اصبح واقفا بعيدا عنها ، يرمقهــا بنظرة وجلة من عينيه الواسعتين ، وبانتصابة من أذنيــه الطويلتيـــن المدببتيــن •

سقط رأسها فوق ركبتيها وهي جالسة • وربما غفت

لحظة او عدة ساعات ، افاقت بعدهـا على اصابع طويلة تمسك ذراعها . انتفضت مذعورة ، وكادت تصرخ ، لولا ان يد امها اصبحت فوق فمها ، وصوتها الخافت اصبح كالفحيح :

ـ تعالي ورائي على اطراف اصابعك .

الليل مظلم بغير القمر ، والشفق لم يطلع بعد ، وكل شيء في القرية ساكن نائم في تلك اللحظة الساقطة ما بين آخر الليل واول النهار قبل آذان الفجر ، وقدما امها الحافيتان الكبيرتان تنتقلان فوق الارض المتربة بسرعة كبيرة، توشك ان تجري ، وحميدة خلفها ، تكاد تلمس طرف ثوبها .

أرادت ان تفتح فمها وتسأل امها عن السبب ، لكن امها توقفت عند سور صغير يفصل الطريق الزراعي عن قضبان القطار . وراء هذا السور كانت تختفي حميدة حين يلعبون المساكة . ناولتها امها طرحة سوداء .

وضعت حميدة الطرحة على رأسها فانسدلت فوق عنقها وكتفيها وصدرها وبطنها وظهرها واصبحت تشبه نساء القرية . فتحت فمها لتسأل ، لكن صفارة القطار جعلت جسد امها يرتعد ، رعدة عنيفة هزّت

الارض مــن تحتهـــا ، وبعنف ايضا اندفعت قبضتهـا الكبيرة في ظهر حميدة ، وقـــذفت بهــا ناحية القطار ، وصوتهــا الهامس المنخفض كالفحيح :

ــ القطار لا ينتظر أحدا • اهربي !•

اندفعت حميدة نحــو القطار ، لكنها استدارت لحظة قبل ان تركب ، ورأت امهـا واقفــة في مكانها ، متسمّرة في الارض ، ثابتة لا تتحرك ، والطرحة السوداء فـــوق رأسهــا وكتفيهــا وصدرهــا ثابتة ايضا ، فلــم يكـــن صدرهــا في تلــك اللحظــة يتحرك ، ولا شــيء فيهــا يتحرك ، ورموشهــا ثابتة متجمدة ، كتمثال حقيقي منحوت من الحجــر •

كان القطار يدخل المحطة ، برأسه الاســود الضخــم ينبعث منه الدخان ، وبعينه الوحيدة الكبيرة المضيئة بنور قوي كشف المحطة ، وكشف حميدة وهي واقفة ، فاختبأت وراء عمود • وقف القطار بعــد ان اصطدمت عرباته بعضها بالبعض ، واصطكت عجلاته الحديدية بالقضبان الحديدية محدثة صوتا عاليــا فاضحا ، خيل اليهــا انه ايقظ كــل اهل القريــة ، فاندفعت نحــو القطار تخفي وجهها بذيل طرحتهــا •

مدّت قدمها اليمنى الصغيرة لتضعها فوق سلم القطار ، لكن السلم كان بعيدا عن الرصيف ، ولم تكن قد ركبت قطارا من قبل ، فلم تصل قدمها الى السلم •

عادت بقدمها الى الرصيف • وتلفتت حولها في ذعر • خشيت ان يتحرك القطار ولا تركب • رأت بعض الرجال والنسوة يركبون العربة الامامية فاسرعت ووقفت خلفهم • راقبتهم وهم يصعدون السلم واحدا وراء الآخر • كل واحد منهم كان ، قبل ان يضع قدمه على السلم، يمسك بيده اليمنى مقبضا حديديا على جانب الباب لم تره من قبل • مدّت حميدة ذراعها وامسكت المقبض بكل قوتها ثم شدت جسمها فاصبحت قدمها فوق السلم ، وصعدت الى الداخل •

جلست على اول مقعد قابلها ، ورأت جوارها نافذة فأطلت منها • كان القطار قد تحرك ببطء ، وتصلب رأسها خارج النافذة وهي ترى أمها لا تزال واقفة في مكانها ، ثابتة لا تتحرك ، وطرحتها ورأسها وصدرها ورموشها وكل شيء فيها جامد ثابت •

انفجرت شفتاها لتناديها ، لكنها تذكرت انها لم تعد امها ، وانما هو تمثال الفلاحة القائم عند مدخل

القريـــة منذ سنين لا تعرف عددها ، فقد رأته منذ ولدت ، ولا بـــد انه كـــان هنـــاك دائما قبل ان تولد •

كان رأسهـــا لا يزال خارج النافذة ، لكن انفاسهـــا اصبحت تدخل وتخرج ، تلهث وهيجالسة في مكانها،ولاول مرة تعرف ملمس دموعهـــا فوق بشرة وجهها ، ومذاقها في فمها •لكنهـــا لم تتحرك ولم تمدّ يدهـــا بطرف جلبابها او كمّهـــا لتمسحهـــا ، تركتهـــا تنساب وتجري وتدخـــل فمها ، ثم لعقتهـــا بلسانهـــا دون ان تتقلص في وجههـــا عضلة واحدة ، ودون ان يخرج من فمها صوت ، ودون ان يتحرك جفناهـــا او تهتـــز رموشها ، وكل شيء اصبـــح اسود ، وذاب القطار في السواد وامتزج بالليـــل ، كالقطرة تذوب في جوف البحـــر • .

***

في تلك اللحظة كان حميدو لا يزال راقدا فـــــوق الحصيرة • كان نائمـــا وعيناه مغمضتان ، لكنه كان يرى عيني ابيـــه في الضوء الخافت ، واقفـــا بقامته الطويلـــة كجذع شجرة كافور ضربت بجذورهـــا في بطن الارض •

سرت في جسده الصغير برودة ثقيلة ، خدّرت ساقيه

وذراعيه ، بذلك الثقل الذي يصيب الاطراف اثناء الحلم المزعج • وظل راقدا في مكانه لا يتحرك ، شاخصا نحو ذلك الشبح الطويل الواقف الثابت بغيرحراك ، وادرك ان شيئا خطيرا قد حدث او سيحدث • كتم انفاسه واختفى تماما تحت اللحاف المسود القذر • اصابعه الصغيرة تشد الغطاء حول رأسه ، واذنه اليمنى فوق الوسادة الصلبة ترتج من تحته بدقات قلبه ، تنبعث من رأسه وليس من صدره •

توقع في كل لحظة ان تمتد الاصابع الطويلة وتشد الغطاء عن رأسه ، وتستقر العينان الواسعتان في عينيه تصب فيهما الشيء الخطير • لكن اللحاف ظل مشدودا حول رأسه ، ودقات قلبه مسموعة في الصمت ، وحركة صدره مرئية في الظلام ، حركة خفيفة نكاد تكون غير مرئية ، كرؤوس الاشجار في ليل ساكن بغير نسمة هواء واحدة ، وبغير قمر ، والظلمة كاللحاف الاسود تلف السماء والارض في تلك اللحظة الساقطة ما بين اخر الليل واول النهار ، قبل ان تبدأ خيوط الفجر ويزحف الظلام صاعدا ببطء ، كحوت ضخم يسبح في محيط لا نهائي ، ترقد في قاعة بيوت القرية الطينية الصغيرة المتلاصقة ككوم من السباخ الاسود •

وحين فتح حميدو عينيه كـــان ضـــوء النهار يمـــلأ الغرفـــة • وايقـــن ان ما رآه لم يكـــن الا حلمـــا ، فقفز من فوق الحصيرة وجرى الى الشارع • كـــان اصدقاؤه من اطفال الجيران يلعبون كعادتهم فـــي الحـــارة الضيقـــة الممتدة امام البيوت ، يمسك كل واحد منهم بذيل جلباب الاخـــر ويصنعـــون قطارا يصفق ويرقص ،ثم يتفككون ويلعبون المساكـــة ، يختبئـــون وراء اكـــوام السباخ ، وفي الزرائب ، وخلف زير الماء ، وداخل فتحة الفرن •

رأى حميدة تجري وسط الاطفال ، وتختفي وراء كوم السباخ • جلست القرفصاء حتـــى لا يظهـــر رأسهـــا مـــن خلف الكوم ، فظهـــر فخذاها البيضاوان يتوسطهمـــا شريط رفيع من الدمور الاسمر هو سروالها • خبـــأت رأسهـــا الصغير بشعرهـــا الاسود الناعم في التـــراب حتى لا يراهـــا احد • لكـــن حميدو كـــان يراهـــا ، وكان هو « المساكـــة » هذه المرة ، فانطلق يجري نحوهـــا مثيـــرا بقدميـــه الحافيتين زوبعـــة من التراب •

ثبت عينيه على كـــوم السباخ ، متظاهـــرا بانـــه لا يراها ، وسار على اطراف اصابعه بخطوات بطيئة حذرة ، واستدار ليختفي وراء الكوم ، ثم وثب وثبة واحدة كالفهد، وامسكها من شعرهـــا بيده اليمنى • امـــا يـــده اليسرى

فقد امتدت بسرعة البرق واستقرت فوق فخذها ، وراحت اصابعه الصغيرة الصلبة تشد سروالها • لكن حميدة رفسته بقدمها ، ونطحته برأسها ، كما تفعل في كل مرة حين يمسكها المساكة ، واستطاعت ان تتخلص من قبضته وجرت لتختبيء وراء كوم اخر •

لم تكن حميدة وحدها تلعب المساكة • كل البنات والاولاد يلعبونها ، وحين تجري البنات ليختبئن ويجلسن القرفصاء تتعرى افخاذهن الصغيرة البيضاء ، وتظهر سراويلهن الرخيصة القذرة كالشريط الرفيع الاسود بين الفخذين ، يحاول المساكة ان يمسكه ويشده الى اسفل ، لكن البنت تعرف كيف ترفسه بقدمها ، او بقدميها الاثنتين ؛ وهو ايضا لا يستسلم ، وانما يقاومها بقدمه ايضا ، او بقدميه الاثنتين • معركة صغيرة غير مرئية ،فكوم السباخ يخبيء جسديهما الصغيرين ، لكن الاقدام الاربع تطل من وراء الكوم ، صغيرة وناعمة لا تعرف قدم البنت من قدم الولد ، لان الاقدام في سن الطفولة كالوجوه ، لا جنس لها ، خاصة اذا كانت اقدامها حافية، فالحذاء وحده هو الذي يحدد الجنس •

انكفأ على ظهره حين رفسته بقدمها ، لكنه نهض

بسرعة ، وكانت هي ايضا قد نهضت ، ورأى وجهها • لم تكن حميدة • تلفت حوله ، في وجوه البنات والاولاد • جرى الى البيت يبحث عنها في الزريبة ، او في فتحة الفرن ، او خلف زير الماء ، او تحت الحصيرة •خرج من البيت جريا يبحث عنها وراء اكوام السباخ ، خلف جذع الشجرة، فوق النخلة ، في بطن جسر الترعة • أدبر النهار وهبط الليل ولم يعثر لها على اثر •

وقف في الظلام على جسر الترعة، ظله الوحيد منعكس على صفحة المياه الراكدة العكرة • ظل طفل لا يزال طفلا ، لكن وجهه لم يعد كوجوه الاطفال الناعمة الملساء لا تعرف الذكر فيها من الانثى • لو كانت صفحة المياه نقية كالماء العذب ربما اصبحت مرآة صافية وانعكس وجهه على صفحتها بطريقة افضل • لكن الترعة كانت كجميع الترع ، يختلط طينها بمائها ، ويتعرج سطحها البطيءالحركة بثبات وتجاعيد كبشرة الوجه العجوز الموغل في الزمن •

اما عيناه فقد اصبحتا ايضا واسعتين ، عجوزين ، شاخصتين في الظلام ، ثابتتين ، الجفنان لا يتحركان ، والرموش تجمدت ، ودمعة كبيرة تجمدت فوق السطح •

لاول مرة تتجمد الدمعة فوق السطح ،وكانت من قبل كدموع الاطفال لاتكف عن الحركة المستمرة الى حد الرعشة كرعشة النجم المتلألىء ، ويخلط المرء في الطفولة بين لمعة الدموع ولمعة الابتسام .

لكن احدا لم يكن يخطىء في تلك اللحظة . انه حميدو الآن الواقف بجسده على جسر الترعة . انه ليس طفلا . وهذه الدمعة الكبيرة ليست دمعة طفل ، وانما هي دمعة حقيقية ، لها ملمس مادي فوق الوجه، ولها طعم الملح في الفم .

ملح حقيقي ، فالدموع ككل سوائل الجسم تحتوي على الملح ، وحميدو لا يعرف كيف يعيش بغير حميدة ،فهي ليست اختا عادية ، ولكنها توأمه . والتوائم نوعان . نوع ينشأ عن الجنينين يعيشان في رحم واحدة ، ونوع اخر ينشأ عن ذكر وانثى داخل جنين واحد .

وكان حميدو وحميدة جنينا واحدا ، ينمو داخل رحم واحدة . منذ البداية كانا شيئا واحدا ، او خلية واحدة ، ثم اصبح كل شيء ينقسم اثنين ، والملامح انقسمت اثنين ، ادق الملامح انقسمت اثنين ، حتى العضلة الضئيلة الصغيرة تحت كل عين انقسمت ، ولم يعد ممكنا

لاحد انيعرف حميدو من حميدة ، حتى امهما كانت تخلط بينهما .

لكن حميدو كان يعرف انه شيء آخر غير حميده ، وان جسده منذ الولادة انفصل عن جسدها ، غير ان الشبه كان شديدا ، والخلط بينهما شديدا الى حد ان الامر كان في بعض الاحيان يختلط عليه هو ايضا فيظن انه حميده ، ويختفي وراء جدار ، ويرفع جلبابه عن فخذيه وينظر بينهما ، وحينما تسقط عيناه على الشق الرفيع الصغير يدرك انه حميدة ، وتسقط فوقهالعصا تمسكها اليد الكبيرة فيشد الجلباب عليه ، ويبكي بدموع حقيقية ، تختفي بسرعة كدموع الاطفال ، ويرى العصا ملقاة على الارض ، فيجري اليها ويأخذها ، ويدسها في جيب جلبابه الطويل ، ومن حين الى حين تمتد يده الى جيبه يتحسسها ، وتسري صلابتها في اصابعه وتنتقل الصلابة الى ذراعه وكتفه وعنقه . ويشد عضلات عنقه فاذا برأسه ينثني الى الوراء في حركة تشبه حركةابيه، ويتكلم من حلقه بصوت غليظ يقلد به صوت ابيه .

وحينما تسمع حميدة صوته الغليظ تدرك ان العصا معه . لم تكن ترى العصا بطبيعة الحال لكنها كانت

تعرف انه يخبئها تحت جلبابه ، في مكـــان ما تحت الباب • وتجري لتهرب منه ، فيجري وراءها • ويظــن من يراهمـــا انهمـــا يلعبـــان ، لكــن حميدو لم يكــن طفلا ، وفـــي جيب جلبابه شيء يخبئه ، شـــيء صلب يتدلى بحـــــذاء فخذه كالعضـــو الغريب •

وحينمـــا ترفع حميدة عينيهـــا اليه وتـــرى وجـــهه لا تعرف انه حميدو • وتتسمّر في مكانهـــا من شـــــدة الدهشة او الذعر • لا تتحرك من مكانها • تتجمد كتمثال ، يضع حميدو كفه فوق سطحه ، ويلمس الجفنين الحجريين ويضع اصبعه بين الجفـــن والعين ، كاصبع كل الاطفال حين يمسكون رأس دمية كبيرة الحجم لهـــا شعر ولهـــا رموش تكاد ان تكـــون حقيقيـــة •

ولم يكن حميدو قد امسك في حياته قط برأس دمية كبيرة او صغيرة • فالاطفال في الريف لا يلعبون بالدمى، ولا يلعبون بالعرائس ، ولا يلعبون بالقطارات او مراكـــب الورق او الكرة او اي شيء اخر • انهم لا يعرفون اللعب • فاللعب للاطفال ، وهم ليسوا اطفالا • انهم يولدون كبارا كيرقات الذباب ما ان تعرف ملمس الارض حتى تطير ،او كدود المش تنفصل الدودة الجديدة عن الدودة الام فـــلا تكـــاد تفرق بيـــن الدود الجديدوالدود القديم •

ورأى حميدو وجه حميدة مقبلا من بعيد على جسر الترعة . وخفق قلبه بفرحة الاطفال القديمة ،لكنها اقتربت منه . وعرف طرحة امه السوداء تلف الرأس وتنسدل فوق الكتفين والصدر والبطن . جرى اليها ووضع رأسه على بطنها .. لم يكن رأسه وهو واقف الى جوار امه يرتفع لاكثر من خصرها . امتلأ انفه برائحة امه المميزة تمتزج برائحة خبيز الفرن وتراب الحقل والجميز . كان يحب الجميز ويجري نحو امه حين تعود من الحقل تلف الجميز فيطرحتها ، ثم تجلس على الارض الى جواره، وتناوله الجميز واحدة واحدة بعد ان تنفخ عنها التراب .

دفعته أمه بيدها . لكنه ظل ملتصقا بها ، متشبثا بجسمها . واستطاع أن يضع رأسه تحت ثديها الايسر . في هذا المكان بالتحديد كان يحب أن يضع رأسه حين ينام الى جوارها كل ليلة . كانت تنام بعيدا عنه ، في الطرف الآخر من الحصيرة ، لكنه كان يصحو في منتصف الليل ، وحينما لا يراها الى جواره يزحف اليها ، ويدفن رأسه تحت ثديها .

لم تكن تبعده عنها دائما ، وتمتد ذراعاها وتلتفان

حوله وتضغط عليه بقوة ، بكل قوتها الى حد انها تؤلمه • ويسري في جسده احساس غامض بأنهـــا ليست أمه ، وليست خالته ، وليست عمتـــه ، وليست أية واحدة من قريباته • وانما هي غريبة عنه ، وجسدها غريب عن جسده ، غرابة تجعله يقشعر ، والقشعريرة تسري من السطح الـى العمق ، ترجّ جسده كرعدة الحمى •

ولفّ ذراعيه حولها من شدة الرعدة ، لكنـه أحس قبضة يدها الكبيرة القوية كقبضة أبيه تدفعه بعيدا وكـاد يسقط في حضن الجسر ، ورفع وجهـه اليها ، ورأى عيني أبيه الواسعتين العجوزين يجري فـوق بياضهمـا الكبير شعيرات دموية حمراء • اشتدت الرعدة وكاد يصرخ من الفزع ، لولا ان يد أبيه الكبيرة أصبحت فـــوق فمه ، وصوته الغليظ أصبح كالفحيح :

ـ تعال ورائي •

الليل مظلم بغير قمر ، والشفق لم يطلـع بعد ، وكل شيء في القرية ساكن نائم في تلك اللحظة الساقطة ما بين آخر الليل وأول خيوط النهار قبل آذان الفجر ، وقدمـا أبيه الحافيتان الكبيرتان تنتقلان فوق الارض المتربة بسرعة

كبيرة ، يوشك أن يجري ، وحميدو خلفه ، يكـاد يلمس ذيل ثوبه •

أراد أن يفتح فمه ويسأل أباه ، لكن أباه توقف عند سور صغير يفصل الطريق الزراعي عن قضبـان القطار • وراء هذا السور كـان يختفي حميدو حـين يلعبون « المساكة » • ناوله أبوه شيئا طويـلا ، صلبا وحادا ، لمع في الظلام كالسكين •

دس حميدو السكين في جلبابه فسقط في قاع جيبه وتدلى بحذاء فخذه • أحس طرفه المدبب الحاد فوق لحمه فتقلصت عضلات فخذيه وساقيه وقدميـه ، وتسمر في مكانه • لكن صفارة القطار الحـادة جعلت الارض تهتز تحته ، فثبت قدميه في الارض يقـاوم أي حركة كجواد جامح ، لكن يد أبيه الكبيرة دفعته فيظهره بقبضتها القوية، وصوته الغليظ المنخفض كالفحيح :

ـ العار لا يغسله الا الدم• اذهب وراءها !

واندفع حميدو نحو القطار ، لكنه استدار لحظة قبل أن يركب ، ورأى أباه واقفـا في مكـانه ، متسمرا في الارض، ثابتا لا يتحرك، والجفنان أيضا ثابتان، والشعيرات

الدموية فوق البياض تجمدت كخيوط من الـــدم رسمت باليد فوق لوحة حقيقية •

* *

في تلك اللحظة كانت حميدة تضع قدمها فوق سلم القطار لتهبط منه • وكأنما سقطت في بحر ، بحر هائج • الامواج ليست ماء ولكنها بشر • رجال ونساء وأطفـــال يرتدون الاحذية الجلدية السميكـــة ، وعربات كالقطارات تجري صفوفا صفوفا فوق شوارع لامعـــة بغير تراب ، تتفرع وتتشابك ثم تتفرع بغير نهاية كشجرة رأسها فـــي السماء وجذرها في بطن الارض ، والبيوت عالية شاهقـــة متراصة في كتلة واحدة ضخمة تحجب السماء ، فلا ترى فيها العين شبرا واحدا ، والضجيج والاصوات والابواق تصم الاذن فلا تعود حميدة تسمع شيئا • لكن قدميهـــا الحافيتين كانتا تنتقلان وحدهما فـــوق الاسفلت ، القدم ومن خلفها القدم الاخرى ، تلك الحركة الطبيعية ، حركة المشي التي يتعلمها الانسان منذ الصغر • وكان من الممكن أن تستمر على هذا النحـــو دون توقف ، فهي لا تعرف طريقها ، ولا تعرف أين يبدأ والى أين تنتهي ، لكن حذاء جلديا سميكا داس على أصابع قدمها اليسرى وكاد يفرمها .

فترنحت لحظة ، فاذا بعربة ضخمة تكاد تدهمها ، وصرخت حميدة • انفتح فمها عن آخره وخرج منه صوتها المكتوم في صرخة حادة طويلة ، طول صرختين أو ثلاث صرخات ، أو عشر ، أو مئة ، أو ألف • صرخـة متتابعة ، متعاقبة ، متصلة في صرخة واحدة طويلة •

ابتلع الضجيج الصاخب صرختها كما تبتلـع أمواج البحر قطرة ، أو قشة ، أو فراشة ، أو عصفـورا وليدا لا يطير • لم يسمع صوتها أحد ، وظلت الدنيا كما كانت تهدر كالشلال ، تفتت مياهه الساحقـة أجساد التماسيح وأشلاء السفن ، وتذيبها ، وتظل مياهه هي مياهه ، بيضاء كما كانت •

سارت حميدة تعرج بقدمها الجريحـة ، وجلست في ركن بجوار سور بعيد عن العربات والنـاس • أسندت رأسها الى السور وحملقت بعينيها أمامها • كل شيء مـن حولها يدور في غموض ، يلفّه الضبـاب ، كالحلم ، أو الكابوس ، الذي ستفيق منه بعد قليل ، وتقفز مـن فوق الحصيرة كالعصفورة • اتكأت بيدها لتقفز ، لكن كفّهـا لمس بطنها ، فانقشعت فجأة عن عينيها غمامة ، ولاول مرة يصبح كل شيء أمامها قابلا للفهم ، ليس ذلك الفهم المدرك

لحقائق جديدة ، ولكنه الفهم الغريزي المبهم الذي ينبعث من خلايا الجسد المرهقة في لحظات الراحة أو الاسترخاء الشديـــد •

نامت في مكانها ثم صحت جائعة • لمحت الى جوارها مخبزا ، رصّت أمامه أرغفة الخبز صفوفا صفوفا • مدت ذراعها النحيلة وأمسكت بأصابعها الصغيرة رغيفا • قربته بسرعة الى فمها وكادت تقضمه بأسنانها ، لكن يدا كبيرة لها أصابع طويلة التفّت حول ذراعها •

شهقت •• ارتفــــع صدرها بالشهقـــة فظهر ثدياها الصغيران من تحت الجلباب الواســع كزيتونتين ، وبرز بطنها المنتفخ كبالونة الاطفال ، والطرحة السوداء لا تزال تغطي رأسها وشعرها وتنسدل على كتفيهــــا حتى أسفل ظهرها قبل ردفيها الصغيرين بقليل •

رفعت عينيها المذعورتين ورأت أمامها عينين واسعتين تحملقان فيها • شدّت طرحتها وأخفت بها نصف وجههـــا كما تفعل نساء قريتهـــا • ظهرت عينها الوحيـــــدة واسعة سوداء فيها نظرة مشدوهة لا تزال بها لمعة طفولة ساذجة • لمعة عين كانت مغمضة ، ففتحت لاول مرة على عالم بغير

حدود ، وصنع الذعر حولها عضلة مشدودة بدت كالدائرة المفتوحة أو كعلامة استفهام مبتـــورة الذيل ، والدموع الجافة خلعت فوقها طبقة كالسحابة الخفيفة ، يزحف نحوها من زاوية الانف احساس جديد بأنها أنثى وليست ذكرا ، أنوثة لم تكتمل بعد ، ولم يعرفها أحد بنفسها ، ولكنها هي التي اكتشفت نفسها بنفسها منذ لحظات ، فاذا بها فجـة طازجة لا يزال يعلوها الندى •

تملّصت من اليد الكبيرة واستطـاعت أن تفلت • وانطلقت تجري • جرى وراءها• دخلت في شارع واختبأت وراء باب من الابواب • أطلت برأسها فلم تجـــد أحدا • خيل اليها انها نجت ، لكن الذراع الطـــويلة امتدت من الخلف وأمسكتها من رقبتها ، وصـــوت خشن غليظ دبّ في أذنها :

ـ قبضت عليك يا لصة ! أمامي الى القسم !

استسلمت • تركت ذراعهـا النحيلة البيضـــاء في قبضته ، قبضة يد غليظـــة كبيرة ، لها خمســة أصابع ، مفاصلها بارزة وعظامها مقوسة ، والعروق من تحت الجلد نافرة ، وتحت الاظافر السميكة طبقـــة طينية سوداء •

زحفت عيناها فوق ذراعه الطويلة ورأت كتفيه • كتفان عريضتان ، فوق كل كتف صف أفقي من خمسة أزرار نحاسية ، يفصل بينهما عنق غليظ ، التفّت حوله ياقة عالية ، اسودّت من الداخل بسبب التراب الذائب في العرق ، تدور الياقة حول عنقه باحكام ، ثم تهبط من الامام فوق صدره في صف رأسي من عشرة أزرار نحاسية • كانت حميدة قد تعلمت شيئا من الحساب في المدرسة الالزامية ، فأخذت تعد الازرار • خمسة فوق كل كتف ، أي عشرة فوق الكتفين ، وعشرة فوق الصدر ، فيكون المجموع عشرين زرا •

النهار كان قد انتصف ، والشمس أصبحت متوهجة ، ينعكس قرصها الاحمر فوق الازرار النحاسية المستديرة ، فتبدو كعشرين قرصا شمسيا تدمع العين لمجرد النظر اليها ، ولا تقوى على الحملقة فيها فتطرق الى الارض • لكن الارض تلتهب تحت قدميها الحافيتين بسخونة لم تعهدها في الارض من قبل ، وحذاؤه ذو الرقبة الطويلة يدبّ بصوت معدني غريب ، يشبه احتكاك الحديد بالحديد • وخطوته واسعة ، وقدمه حين ترتكز على الاسفلت تصبح ثابتة ، والقدمان ترتفعان الى ساقين

طويلتين داخل بنطلون من قماش سميك لــه جيب طويــل كالسرداب تختفي فيه آلة صلبة حــادة ، وتتذلى بحــذاء فخــــذه •

دخلا من الشارع الواسع الى شارع ضيق • الاصابع الطويلة لا تزال تلتفّ حول ذراعها • لكنها ليست خمس أصابع كما كانت • أصبحت أربــع أصابع • أمــا الاصبع الخامس فقد انفصل عن بقية الاصابع وصعد وحده الــى أعلى ، فوق الذراع الناعمـــــة ، حذرا متلصصا ، ثم دفن رأسه الاسود الغليظ تحت الابط الاملس الطفولي الذي لم ينبت فيه الشعر بعد •

شدّت ذراعها • لكن الاصابع الاربعة تقلصت على لحمها الطري ، والاصبع الخامس امتد مـــن تحت الابط واصلا بيوزه الاسود المدبب حتى الارتفاعة الناعمة لبرعم الثدي ، يضغط عليه ضغطات حــــذرة مرتعشة متقطعة ، تزداد شدة في ثنية شارع ، أو خلف جــدار ، وتخفّ أو تنعدم تماما في وسط الشارع ، وأحيانا يتراجع الاصبــع الخامس سريعا ويلتصق باخوته الاربعة حين يمران أمــام حشد من الناس •

ملأت أنفها فجأة رائحة تتنة • ووجدت نفسها فــي

زقاق ضيق مظلم • أمام باب خشبي صغير رأته يتوقف • أخرج من جيبه مفتاحا • دفعها أمامه الى الداخل ثم أغلق الباب •

لم تر شيئا أول الامر ، فالظلام دامس • أشعل بعود ثقاب مصباح كاز صغيرا فظهرت على الفور أرض بلاط ضيقة ، في أحد أركانها بساط يشبه الحصيرة ونافذة حديدية صغيرة فوقها قلة ماء • جدران الحجرة تبدو في الضوء الخافت رمادية يعلوها سواد كالهباب الذي يحدث من موقد الكاز • على أحد الجدران مسمار عليه بدلة من قماش سميك يشع من فوق صدرها وكتفيها العريضتين المحشوتين أزرار نحاسية صفراء ، لمعت في الظلام كعيون مفتوحة مريضة بالتهاب الكبد الفيروسي • على الارض استقر الحذاء الضخم برقبته الطويلة كحيوان بغير رأس ، والى جواره سروال أبيض اصفر ظهره واسود بطنه ، تفوح منه رائحة بول قديم •

رفعت رأسها من فوق البلاط فرأته واقفا عاريا • كتفاه العريضتان أصبحتا نحيلتين ضامرتين عظامهما بارزة ، وساقاه أصبحتا رفيعتين معوجتين ، وقدماه الضخمتان السميكتان المرتفعتان عن الارض أصبحتا لا يفصلهما عن

البلاط شيء ، والآلة الحادة الصلبة التي كانت مختفية في جيبه أسبحت ظاهرة •

شهقت بدهشة مليئة بالذعر • قاومت الذعر برد فعل غريزي • لكنه طرحها على الارض ، وشد باصبعه الغليظ جلبابها من فتحة العنق فانشطر الثوب البالي شطرين ، ولم يكن هناك ملابس داخلية تحت الجلباب •

قالت بصوت ضعيف مشروخ :

ـ انت مين ؟

رد بصوت آمر غليظ :

ـ أنا الحكومة •

قالت :

ـ ربنا يطول عمرك سيبني أروح •

رد بصوت آمر غليظ :

ـ تروحي فين يا بت ، انت محكوم عليكي •

كل شيء أصبح يتحرك بسرعة فائقة ، بسرعة الانفاس التي تلهث ، وبسرعـــة العضلات التي تنقبض وتنبسط ، سرعة غير عادية لا تحدث الا في الاحــــلام ، لكن الحلم لم يختلط هذه المرة ، لم يكن هناك بائع يضرب بالعصا ،

وانما هو ذكر له شارب خشن يحتك بوجههـــا ، وتسد رائحة التبغ أنفها ، وشعر صدره غزير ، تلاحمت شعراته الطويلة والتصقت فوق الجلد بعرق سميك لزج •

وكل شيء توقف فجأة • لحظة سكون تشبه لحظـة الموت • رفعت رأسها من فوق البلاط وتلفتت حولهـا • رأته راقدا على ظهره ، عيناه مغمضتان ولا يتحرك • ظنت انه مات ، لكن شخيرا خافتا بدأ ينبعث من فمه المفتـوح ، ما لبث أن ارتفع وأصبح كخرير ساقية عتيقة يجرها ثـور منهك مريض • رفعت جسمها بهدوء من فـوق الارض ، وشدّت طرفي جلبابها المشطور فـوق صدرها وبطنها • سارت على اطراف اصابعها الى الباب • حركت رأسهـا بهـدوء ونظرت خلفهـا • رأت العيون العشريـن الصفراء مفتوحـة تحملـق فيهـا • فتحت الباب بسرعة •

رأت الشارع الواسع أمامهـا ، فانطلقت فيه بكـل قوتها تجري هاربة بغير توقف •

* *

في تلك اللحظة ، كان حميدو قد هبط من القطار ، وأصبح ظهره ناحية الجنوب ووجهه ناحية الشمال ، وعيناه أمامه تنظران ، تحملقان في الوجوه المحتشدة خارج محطة

باب الحديد ، المحطة الرئيسية القديمة لمدينة القاهرة ، وقدماه الحافيتان تنتقلان فوق الارض الاسفلت ، وجلبابه طويل واسع ، تهتز من تحته السكين ، وتتدلى بحذاء فخذه كطرف صناعي أو عضو مزروع .

ارتطم بوز السكين الحاد المدبب بلحم فخذه فاقشعر جسده ، وسرت القشعريرة في عنقه ورأسه . ترنح ، وكاد يسقط بين الاحذية الجلدية السميكة ، لكنه شدّ عضلات ساقيه وظل منتصبا فوق قدميه الحافيتين ، وعيناه تائهتان في الخضم الواسع المتلاطم ، ترتفعان مع قمم العمارات الشاهقة ، وتهبطان مع شعاع الشمس المنعكس على الاسفلت اللامع ، وتدوران مع حركة الميدان المستدير ، وفي مركز الدائرة تمثال حجري ضخم له رأس انسان ، تلفّ حوله صفوف من البشر ، والاعلام ، وصفوف من العربات ، تلفّ وتدور ثم تتفرع منتشرة في خطوط مستقيمة متعددة ، لا تلبث أن تتشابك وتصبّ في ميدان آخر ، ثم تتفرع ، وتنقسم الفروع الى فروع ، تتفرع ، وتتشابك ، وتتفرع بغير نهاية .

أخفى عينيه بيديه ، وأسند رأسه الى عمود نور . غلبه النوم فنام وهو واقف على قدميه . فتح عينيه على صوت . تلفّت حوله . رأى الشارع الواسع هادئا خاليا

من الناس والعربات ، غارقا في ظلمة الليل • ثقب الظلمة بعينيه الحادتين • لمح شبحا يجري من بعيد ، قدماه حافيتان ، والجلباب الواسع الطويل يرتفع فوق البطن ارتفاعة مرئية واضحة •

انفرجت شفتاه وتدافعت أنفاسه لاهثا : حميدة • وانطلقت قدماه فوق الاسفلت ، يده اليسرى مرفوعة أمامه تشق الظلمة ، ويده اليمنى في جيبه تتحسس النصل الحاد الصلب • توقف الشبح في ركن مظلم • اقترب منه حسيدو بخطوات بطيئة حذرة • أصبحت المسافة بينهما خطوة واحدة • سمع الصوت الخشن يهمس كالفحيح : « العار لا يغسله الا الدم » • انتزع السلاح من جيبه وأخفاه خلف ظهره • كشف الركن المظلم فجأة ضوء كشاف متحرك • رأى وجه أمه من تحت الطرحة السوداء • صرخ • دوت صرخته في الليل فتوقف الضوء فوق وجهه • اقترب منه شخص لم ير عينيه في الظلام ، لكن على كتفيه وفوق صدره رأى صفين من العيون المحلقة المستديرة تشع ضوءا أصفر •

انفرجت شفتاه ليسأل ، لكن كفا كبيرة غليظة سقطت فوق صدغه ، تبعتها كفٌ أخرى فوق الصدغ الآخر • رفع

ذراعه ليقاوم الصفعات لكـن خمسة أصابع التفّت حول ذراعه • استعان بذراعـه الثانية فارتفعت في الجـو ذراع خشبية كالشومة سقطت فوق رأسه •

حينما فتح حميـدو عينيه شعر بصـداع شديد • تحسس رأسه وعثر بين الشعر على الجرح تغطيه قشرة من الدم الجاف • هرشها فسقطت على الارض الى جوار حذاء ضخم يرتفع الى رقبة جلدية تحوطها ثنية بنطلون من قماش سميك ، والساقان طويلتان ترتفعان الى صدر مربع عريض رشق عليه من الامام وفوق الكتفين صفّان مـن الازرار الصفراء المستديرة ينعكس عليها ضوء مصباح خافت •

داس الحذاء الضخم عـلى قشرة الدم وهرسهـا بوحشية ، ثم دبّ فوق الارض فارتفع في الجو صـوت غليظ خشن :

ـ ما اسمك ؟

ـ حميدو •

مشت الموسى الحادة فـوق جلدة رأسه فأصبحت صلعاء ، وسقط شعر رأسه الغزير في جردل مع جلبابـه الطويل الواسع • كانت الشمس مائلة في أول الصبـاح

المبكر ، فرأى ظل شخص طويل عريض الكتفين يتبعه فوق الارض • توقف الظل • تحرك فتحرك • ضرب الارض بقدمه فسمع صوتا معدنيا غريبا لم يعهده من قبل حين كان يضرب الارض بقدمه الحافية • نظر الى قدميه • رأى الحذاء السميك الضخم يرتفع في الرقبة الجلدية الطويلة والبنطلون من القماش السميك وداخل كل منهما ساقه الحقيقية النحيلة ، والساقان ترتفعان الى صدر عريض مربع مغلق بصف من الازرار النحاسية ، والكتفان عريضتان محشوتان بالقطن أو القش •

داس بحذائه على الارض في خطوات بطيئة وجلة • داخل كل فردة حذاء ترقد قدمه النحيلة الصغيرة منكمشة، منضغطة تحت الجلد السميك ، أصابعها رفيعة بيضاء ، لا يجري فيها دم ، ولا تسري فيها حركة ، ميتة أو شبه ميتة ، وحركتها داخل الحذاء معدومة • الحذاء هو الذي يحركها ، يرفعها ويخفضها ، وينقلها فوق الارض خطوة خطوة • وفي كل خطوة يصطك حديد الكعب بالاسفلت محدثا صوتا معدنيا وبطيئا كاصطكاك حافر عجل مريض مساق الى المذبح •

توقف ، فتوقف الظل الاسود المرسوم بعناية فوق

الارض ، رأســـه حليق أملس انعكست عليه الشمس ، والعينان ثقبان في الرأس ينفذ منهمـــا الضوء ، والعنق عضلاته مشدودة ، وعضلات الظهــر مشدودة ، وجــدار البطن مشدود من تحته معدة مشدودة ضامرة لم يدخلها الا دخان أسود ، ولعاب أسود ، وكسرة خبز مقددة غمست في عسل أســود ، مع قطعة من بصل ،أو قطعة مخلل تلسع كالعلقم ، يصلح بالعلقم طعم العسل الاسود ، ثم يصلــح طعم العلقم بالدخان الاسود ، يشفطه بأنفه وفمه وبلعومه ليملأ به صدره ، ويضغط به على معدته فيتجشأ كالــذي شبــع .

لسعه كرباج رفيع خلف عنقه فتحركت قدماه فــوق الارض . القدم اليمنى أولا ثم القدم اليسرى . اصطك الحديد بالاسفلت في دقات منتظمــة ، كدقات الساعة ، أو ضربات القلب : كب . دب . كب . دب . شمــال . يمين . شمال . يمين .

دوى الصوت القوي الخشن في الجو :

ــ قف !

اصطكت فردتا الحذاء بعضهما بالبعض ، والتصقت ساقاه وفخذاه بعضلات منقبضة . امتدت يده اليمنى فــي

جيبه واستقرت فوق آلة القتل الصلبـــة ، تستد صلابتها بحذاء فخذه وتنتهي برأس معدني مدبب ومثقوب .

صاح الصوت الخشن :

ـ انتباه !

التفّت أصابع يده اليمنى حول الآلة ، أربعة أصابع فقط وانفصـل الابهـام ليصبح وحـده فوق الزنـاد ، واحدى عينيه صوبت الى النقطة المحددة الثابتة في منتصف المسافة بين العينين المفتوحتين .

فتح فمه ولهث لكن يدا قوية ضربته على بطنـه والصوت الخشن دبّ في أذنيه :

ـ اغلق فمك واكتم نفسك .

أغلق فمه وكتم نفسه .

صاح الصوت الخشن الآمر :

ـ العار لا يغسله الا الدم !

وضغط بابهامه على الزناد .

سمع دويا لم يسمعه من قبل ، ورأى جسدا يسقط على الارض يجري من تحته سائل أحمر عرفه على الفور . انه دم الشاة . فاليوم هو العيد ، وهو لا يزال واقفـا

يحملق في العينين المفتوحتين ، الساكنتين ، لا يرمش لهما جفن ، ثابتتين بنظرة ميتـــة ، اتسعت وامتلأت بالذعر ، وانتقل الذعر اليه فارتجفت ساقاه النحيلتان تحت الجلباب الواسع ، وجرى ليدفن رأسه في صدر أمه ويبكي •

ومسح دموعه في صدر أمه ثم رفع عينيه اليهـا ، ورأى عيني أبيه تكسوهما الشعيرات الدموية • والازرار النحاسية الصفراء فوق الصدر والكتفين كانت لهـا لمعة خاصة ، والصوت الاجش كانت له خشونة آمرة مخيفة : أتبكي كالنسوان ؟

وعاد حميدو الى مكانه من الصف • وقف منتصبا ، تحت قرص الشمس ، عينـــاه بلون ضـــوء الشمس ، حمراوان ، سوادهما هرب تحت الجفن في الظل ، في المكان الامين الرطب • الجـو في الخارج شـــديد الحرارة • الاسفلت ملتهب ، أذابته السخـــونة الشديدة فأصبحت كعوب الاحذية تنغرز فيه كما تنغرز في الارض الطينية •

توقف حميدو لحظة ليشد حذاءه • تخلف خطـوة عن الصف • لسعه الكرباج عـــلى قفاه • قفز ليلحق بالصف لكنه إنكفأ على وجهه وسقط على الارض •

قبل لحظة السقوط كان حذاؤه قد انخلع ، وكان الهواء الساخن قد اندفع في صدره على شكل كلمة منطوقة لها صوت أدرك انه صوته حين ينطق . وأدرك ان جسده هو الذي سقط على الارض وليس جسدا آخر ، وان الدقات المنتظمة المسموعة في أذنه تنبعث من صدره . وشعر بزهو لقدرته على تمييز جسده عن جسد الشاة .

ظهر الزهو في عينيه ، وكان وجهه لا يزال ناحية الارض ، فطارت البصقة من الفم الغليظ واستقرت فوق مؤخرة رأسه ، تبعتها سبّة مألوفة للاذن (اسم من أسماء الاعضاء التناسلية المؤنثة) ، تبعتها لكمة قوية ببوز حذاء سميك في ظهره فوق الكلية مباشرة .

هذه اللكمة ببوز الحذاء لم تكن تحدث كل مرة بهذه القوة نفسها . وكنت أرى حميدو ينهض بعدها ويجري ويدخل الصف . لكن اليوم كان العيد . وسيده سيحضر الحفل بشخصه لا بمندوب ، ومن الطبيعي ان أي خطأ لا يغتفر ، وان كان زلة قدم . لم تكن زلة القدم في ذلك اليوم مجرد زلة قدم ، ولكنها تصبح شيئا آخر أشد خطورة . لان الصف يصبح مشوها . وحين يشوه

صف تشوه الصفوف الاخرى بطبيعة الحـال • وهـذه كارثـة •

واختلطت الاشياء أمام عيني حميدو • لم يكن ذلك لقصور في قدرته على الملاحظـة ، بسبب ضيق الوقت أيضا • فالوقت في مثل هذا اليوم الهام يصبح ضيقا، ووقع الحياة يصبح سريعا لاهثا ، فلا يمكـن لانسان أن يتنفس التنفس الطبيعي ولا بد أن يلهث الجميع •

ولهث حميدو كغيره من البشر فلمحته عين • دائما هناك عين تلمح ، ترقب الاشياء ، وتدس أنفهـا بتطفل شهواني في حياة الغير أو موتهم • لا تترك الحي يستمتع بحياته ، ولا الميت يستمتع بموته • وضم حميـدو ساقيه باستحياء (كان قد اكتسب قدرا من الحياء) ، وأفسـح الطريق لموكب العربات • لكن الوقت كان ضيقا الى حد ان ساقه اليسرى لم تجد متسعـا من الوقت لتتحرك وظلت ممدودة في الطريق ، حافيـة ، وأصابع القدم الخمسـة منتصبة ، تهتز بحركة مرئية بالعين المجردة •

توقف الموكب مشدوها أمام المشهد الذي لم يحدث من قبل ولا من بعد • لم تذكر كتب التاريخ حادثة من هذا

القبيل • لكن ما يكتب في التاريخ شيء والذي يحدث في الواقع شيء آخر • وما حدث في الواقع كان يستحق أن يدخل التاريخ لجسامته ، لكن التاريخ بطبيعتـــه لا يفتح بابه للحوادث الجسيمة ، خاصة اذا كان بطلها حميدو •

لم يشعر حميدو ببطولته رغم الزحام الـذي أصبح حوله • أعداد هائلة من البشر تجمعت في لحظة خاطفة • وامتلأت المساحات الخاليـة بين العمارات بالاجسـاد ، وانسدت الابواب والنوافـذ بالرؤوس ، وترك النـاس مكاتبهم ودواوينهم وأغلقوا حوانيتهم واصطفوا صفـوفا متلاصقة يستمتعون بالمشهد • لا أظن ان أحـدا تخلف ، صغيرا أو كبيرا ، ذكرا أو أنثى ، من الطبقة العليا أو من الطبقة الدنيا ، فالكل يريد أن يستمتع ، واللذة عامـة ، ومشروعة بشرط أن تكون في الخفاء •

وكان حميدو لا يزال في موقعه من الارض ، وعيناه مغمضتان بطبيعة الحال بسبب الموت ، لكنه رأى (ورؤية الميت أشد حدة من رؤية الحي) رجالا كثيرين من حوله• عرف انهم رجال بسبب رؤوسهم الحليقـة ، وخراطيمهم المطاطة ، وأزرارهم النحاسية، وآلات القتل الصلبة المتدلية بحذاء أفخاذهم •

حاول أن يفتح فمه ليدافع عن نفسه ، ليحكي قصته منذ ولدته أمه ، لكن سيده كان حاضرا ، وفي حضــــور سيده يصبح الوقت ضيقا ، ولا يكون هناك متسع لاحد ، والحكم بطبيعة الحال لا بد أن يصدر أولا ، ويوقع عليه بالعلم ، وينفذ ، ثم يتسع الوقت بعد ذلك لاي شيء آخر •

وصدر الحكم ضد حميدو فوق صفحة كاملة مــن صفحات دفتر الاحكام ، وكان القانــــون يقضي بأن يقرأ حميدو المحضر قبل أن يوقع عليــه بالعلم • ولــم تكــن الحروف واضحة بسبب رداءة الخط والسرعة في كتـــابة المحضر ، وأصبح من الصعب على حميدو أن يفك الخط ولم يكن حميدو قد تعلم القراءة •

لكنه استطاع أن يلتقط كلمـــة أو كلمتين من كل سطر • ودهش لقدرة رجال البوليس على تحويله منجندي مجهول الى بطل ، وأن تكون بطولته خارقة للعادة الى حد ان حركة أصابع قدمه الحافية في وجه سيده أصبحت حركة تمرد • ولم يعد حميدو قادرا على كتمان زهــوه ، وراح يحرك أصابع قدمه حركة بطيئة مليئة بالكبرياء •

وارتفعت جميع الاكف بالتصفيق • وكان سيده في

الصف الاول • فارتفع كفّاه أيضـا بالتصفيق (حركـة سيده كحركة التاريخ لا يمكن أن تتجـاهل الجماهير) • وحينما تحركت ذراعاه الى أعلى وهو يصفق ، سقط فوق الارض الساندويتش المحشو بلحم الشاة الذي كان يخفيه تحت ابطه ، التقطه على الفور طفل كسيح كان يزحف بين الصفوف بأكياس اللب •

وابتسم حميدو رغم انه لم يدرك شيئا مما يـدور حوله ، فالمشهد لاارادي ولا فضل له فيه ، وغير منقـن أيضا ، يفتقر الى الخبرة ، وتنقصه الثقافـة الضرورية ، والاطلاع على التراث • ولم يكن حميـدو قد قرأ كتب التراث ، وعلى الاخص قصص الحب العذري ، حين كان الحب نظيفا والانسان شريفا ، لم تخلق له بعد أعضـاؤه التناسلية •

لكن آدم اقترف الخطيئة العظمى (كما كانت تحكي له أمه) فاذا بعضو قبيح المنظر ينمو بين فخـذيه • انتقام الهي عادل على حد قول أمه • وهنا خطر له سؤال لم يخطر له من قبل (ولعل سبب ذلك ان جسده كان ميتا فأعطـى نفسه حق التفكير في المقدسات) ، وكان السؤال هـو : كيف اقترف آدم الخطيئة قبل أن يخلق له هذا العضو ؟

وأراد أن يطرد عنه هـذه الفكرة ، فالتفكير في مثل هذه الامور عمل غير أخلاقي ، خاصة في حضور سيده . واختلس حميدو نظرة سريعة بين فخذيه فلم يجد العضو ، ووجد مكانه شقـاً صغيرا يشبه الشق الذي كان يراه في جسم حميدة . واعتقد ان في الامر خطأ ما ، وان أجسـاد الموتى اختلطت بعضها بالبعض ، وعند الفرز النهائي أعطوه جسد امرأة . دائما هناك خطأ في الفرز النهائي . فالموظف الذي يفرز ضعيف البصر بسبب الـدرن الرئوي . وهو الوحيد المكلف بالفرز . (الميزانية لا تسمح بموظف آخر) وعليه أن ينقل الاسماء من كشوف الفرز الابتدائي الـى كشوف الفرز النهـائي . وحروف بعض الاسماء متشابهة، وأسماء الاناث لا يفرقها عن أسمـاء الذكور الا التـاء المربوطة ، أمين يصبح أمينة ، وزهير يصبح زهيرة ، ومفيد يصبح مفيدة ، وحميدو يصبح حميدة . أي انها ليست الا جرة قلم ويصبح الرجل امرأة .

وكان حميدو يحب أن يكون امرأة أحيـانا ، وفي أحيان أخرى يقاوم ذلك مقاومة شديدة . فالمرأة في ذلك الوقت كانت تكلف بأعمال الخدم المهينة ، كأن تمسح حذاء الرجل بعد أن يخرج من دورة المياه أو تناوله كوب مـاء

وهو راقد فوق ظهره يتجشأ بصوت عال (كان مسموحا للرجل فقط أن يتجشأ بصوت عال) ، أو تغسل جوربه النتن ، أو سرواله الاكثر تتانة بسبب البول وعدم توافر الماء والصابون .

ويحاول حميدو تصحيح الامر ، لكن التصحيح لم يكن سهلا بأي حال من الاحوال . اذ عليه دائما أن يثبت انه ليس امرأة ، وفي كل مرة يستدعون الطبيب الشرعي ، الذي ينزع سرواله القذر بتأفف ، وينظر بين فخذيه بكل وقاحة . وأحيانا لا يستوثق تماما من مجرد النظر ، فيمد أصابعه الانيقة ذات الاظافر المشذبة ويفحص العضو المنكمش ، المذعور ، ويقيسه من جميع الزوايا بمسطرة مدرجة من البلاستيك ، ويسجل الارقام بقلمه الباركر في دفتر خاص ، ثم يرسلها داخل مظروف مغلق بالشمع الاحمر الى قسم الفيش والتشبيه .

وهذا هو القسم الذي يختلط فيه الحابل بالنابل ، وتختلط فيه بصمات أصابع اليد مع أصابع القدم مع غيرها من أعضاء الجسم . وتتشابك ذيول الارقام مع رؤوسها ، ويسقط منها أجزاء ، وتنطمس أجزاء . والسبب في ذلك رداءة الحبر المغشوش (الغش كان منتشرا في ذلك الوقت

ويمكن لجردل ماء أن يضاف الى زجاجة حبر) .

وظلت حقيقة أمره بهذا الشكل معلقة لبضع سنوات ، لا يقطع أحد فيها برأي ، ولا يستدعيه أحد لاعادة الكشف. وظن حميدو ان الموضوع أصبح منسيا أو كأنه ما كان . وسار في الشارع باطمئنان ، الى حد انه دخل محلا للحلاقة ليحلق لحيته الطويلة . وجلس على الكرسي المريح المتحرك، وهز قدميه باسترخاء ، وشد احدى الجرائد القديمة من فوق المنضدة ، وقلب صفحاتها بغير اهتمام . لكنه ما أن وصل الى الصفحة الاخيرة حتى اتسعت عيناه بالدهشة . كانت صورته منشورة في ذيل الصفحة ضمن صور المشبوهات ، ولم يكن البغاء محرما في ذلك الوقت ، فأمسكوه وأعادوه الى الخدمة .

* *

كانت حميدة في ذلك الوقت قد اهتدت الى مهنة شريفة (الشرف في ذلك الوقت كان معناه الخدمة بالبيوت) . تلقنت أول درس في الخدمة ، وهو أن تنادي الاناث بكلمة « ستي » وتنادي الذكور « سيدي » . وأدركت ان رضا أسيادها عليها يزيد كلما زادت اطراقة رأسها وهي تمر أمامهم ، وأصبحت تثني نصفها الاعلى

فوق النصف الاسفل بصفة دائمة ، فالبيت يحميها من الشارع ، والشارع فيه رجل يتربص بها ولا يكفّ عن مطاردتها .

المطبخ كان حياتها ، وبالذات البقعة المربعة الرطبة أمام الحوض ، ويداها الصغيرتان في الماء الجاري من الصنبور ، ليل نهار ، وصيف شتاء ، وعيناها السوداوان تواجهان الحائط من تحت طبقة الدموع الجافة ، تذيبها من حين الى حين نظرة ملتهبة حادة كالسيف ، تشق الحائط ، وتنفذ الى حجرة الطعام ، حيث مائدة الاكل المستديرة تحوطها تسعة أفواه ، تنفتح وتنغلق على شدقين منتفخين ، يتحرك الفك الاعلى فوق الفك الاسفل ، والاسنان كتروس الطاحونة تصطك وتهرس ، ويتراكم في الحوض صفوف الصحون الفارغة ، تعلوها طبقة دهنية متجمدة ، وتمتلىء صفيحة القمامة حتى الحافة ببقايا الاكل غير المهضوم ، وتنسد ماسورة المرحاض ببقايا الاكل المهضوم .

وفي منتصف الليل ، وبعد أن تمسح أرض المطبخ ، تدسّ في فمها قطعة خبز ، وتشد بأسنانها على قطعة جلد أو قطعة عظم داخلها بقايا نخاع ، ثم تضع جسمها الصغير

بجلبابها المبلل فوق الدكة الخشبية وراء باب المطبخ ، وتترك أصابعها المتورمة المحتقنة تنز سائلا أصفر بمثل حرارة الدم ، وأذنيها الصغيرتين تتابعان الفحيح الذكري العدواني المنبعث من حجرة النوم يتبعه الانين الانثوي الذليل وقعقعات مفاصل السرير حين يرتج •

أغمضت عينيها ونامت • تخفف جسدها من العبء ، وزال الالم من يديها وقدميها ، وأصبحت تتنفس بهدوء ، هدوء مألوف ، تسربت من خلاله صور مألوفة ، راقدة في قاع الجمجمة ، قاع مظلم ، تتراقص فيه ذؤابة متهالكة من الضوء ، وتبدو الجدران طينية سوداء يلمع فوقها قش التبن الاصفر ، ترتفع الى فتحة مستديرة كالنافذة ، وتهبط الى بساط كالحصيرة ، ترقد على الطرف البعيد أمها ، طرحتها السوداء حول رأسها ، ويدها كالوسادة تحت صدغها ، وفي الطرف الآخر تنام حميدة ، عيناها نصف مغلقتين كعيون الاطفال حين ينامون على قصة عفاريت مخيفة ، وشفتاها نصف منفرجتين عن أسنان صغيرة شفافة نبتت حديثا مكان الاسنان اللبنية ، وأنفاسها لها رائحة الاطفال حين يتنفسون كتنفس الزهر المغمض قبل طلوع الفجر وسقوط الندى ، ونهداها مدببان تحت

الجلباب الواسع كبرعمين نبتا منذ لحظات ثم انضغطا فجأة تحت اليد الكبيرة المفلطحة كالبلطة ، التي أصبحت تزحف متسللة تحت الجلباب ، ترفعـــه عن الساقين الصغيرتين والفخذين ، والاشياء تختلط في شيء واحد ، في عصـــا واحدة غليظة في يد البائع ، يضرب ، ويضرب على رأسها، وصدرها ، وبين فخذيها ، وهي تصرخ ، لكن صوتهـــا لا يخرج ، وتبـكي وحدها بالليل بنشيج مكتوم ، وتبتلع دموعها كلها قبل الفجر ،وفي الصباح الباكر تبصقها كلها في دورة المياه ، قبل أن يصحو أحد ، وتشد قامتها ، وتنظـــر فـــي المرآة الى عينيها المغسولتين المرفوعتين في تساؤل .

تساؤل لا أحد يجيب عليه ، رغم ظهرها المحني بعض الشيء ، وأصابعها المتورمة المتقيحة ، وكعبيها المشقبين ، وقدميها الحافيتين تصعدان سلم الخدم ، وسلم الخـــدم حلزوني وملتو متعرج ، وعند كل ثنية شق مظلم يتســـع لجريمة سرية ، وصفيحة قمامة فاضت بها القمامة ومـــلأت الارض بذباب وصراصير صغيرة تزحف مـــــن تحت عقب الباب الى الشقق الانيقة الفاخرة .

من يرى حميدة وهي صاعدة السلم أو هابطة لا يرى عليها سمات الخدم . ما هي سمـــــات الخدم ؟ عيناهـــا

مغسولتان مرفوعتان الى أعلى • بعد العينين لا شيء يهم • وكل شيء يمكن ان يكون متقرحا مغلقا على الصديد، وقدماها تغوصان حتى الركبتين في القمامة ، قمامة عضوية لان أصحابها من آكلة اللحوم ، ورائحة اللحم الميت أشد فسادا من النبات الميت ، ومع ذلك تدوس حميدة بقدميها على الرائحة وترفع عينيها للسماء ، وتدرك ما لا يدركه أحد •

ذلك ان قمامة الإنسان تزداد بازدياد مكانته في المجتمع • فالمعدة التي تأكل بفتحتها العلوية اكثر من غيرها تخرج من فتحتها السفلية بطبيعة الحال اكثر من غيرها • ومعدة سيدها بغير جدال اكبر معدة ، وقمامته بالطبيعة أضخم قمامة ، يضعها الخدم في صفائح ، تحملها عربات مصفحة ، وتجمع على شكل هرم عال في مكان بعيد في الصحراء ، يتفرج عليه السياح بانبهار •

اهرامات صغيرة من القمامة في ركن كل شارع ، يفد اليها من حين الى حين جرذان، وكلاب ضالة، وقطط صغيرة عيونها مستديرة لامعة مرفوعة الى أعلى كعيون الاطفال وأصابعها منتفخة كأصابع حميدة ، تفتش بسرعة عن قطعة خبز ، وشيء من غموس لم يتعفن بعد •

وخرجت اصابعها من صفيحة القمامة تلتف حول شيء،فتحت يدها لتراه ، لكن ضوءا مفاجئا سقط فوق كفها ٠ اختفت بسرعة وراء الجدار ٠ لكن الضوء تبعها ، وظل طويل ارتسم فوق الارض ، رأسه حليق اصلع،وكتفاه عريضتان،فوق كل كتف صف افقي من خمسة ازرار صفراء تلمع ٠ عرفته على الفور فشهقت بصوت عال ، وفتحت عينيها على صوت سيدها الخشن :حميدة٠ورأت الشاة تدخل من الباب يسوقها الجزار٠ ادركت ان اليوم عيد لذكرى وفاة سيدتها ٠

التقت عيناها بعيني الشاة ٠ توقفت الشاة ٠ تسمّرت قوائمها الاربع في الارض ٠ ظلت عينا حميدة تحملقان في الدائرتين السوداوين ومن حولهما البياض الصافي ، تكسوه لمعة مفاجئة، تتحرك فوق سطح العينين ، تترقرق ، كدمعة كبيرة ثابتة لا تتبخر ولا تسقط ٠ اتسعت عيناها بالدهشة ٠ تلك الدهشة التي تحدث لانسان يرفع رأسه فجأة فيرى عينيه في مرآة لم تكن موجودة ٠

شدّ الجزار الشاة من حبل قصير يلتف حول عنقها٠ تبعته الشاة ٠ لكن عنقها ظلّ ملويا الى الخلف ،

ناحية حميدة • التفـّت اصابع الجزار الكبيرة الغليظة حول العنق ، رفسته الشاة بيديهـا وقدميهـا الصغيرتيـن • امتدّت نحوهـا اربع اياد قوية، شدت ذراعيهـا وساقيها بعيدا ،واصبحت الشاة ممدودة فوق ظهرها ، وعيناهـا السوداوان الواسعتان مفتوحتان بالذعر ، تبحثان في العيون حولهـا عن عيني امها • كانت امها تقف على مسافة غيـر بعيدة ، عيناها هادئتان ، ثابتتـان ، ورموشهـا ثابتـة ، والطرحـة السوداء فوق رأسهـا وكتفيهـا وصدرهـا ثابتـة لا تتحرك •

ارتعشت عضلة طويلة نحيلـة تمتـد بامتداد الفخـذ النحيـل الصغير • امتدت الرعشة حتـى اعلى الفخذ ، حتى الزاوية المنفرجة ، كفم طفل مفتوح يلهث • شفتـاه ناعمتان ورديتان يشف من تحتهمـا لون الدم الاحمـر ، نديتان بلعاب شفّاف كدموع الاطفال ، واللسان الدقيـق بدأ يرتعش ، كرعشة لسان عصفور يذبح •

رفعت عينيهـا السوداوين المذعورتين مـرة اخـرى تبحثان في العيون المتزاحمة حولها عـن عينـي امهـا • نظرت اليهـا بعينين غريبتين فيهمـا نظـرة باردة كنصل

السكين • حولت عينيهـا الى السقف بعيدا عـن النصل، لكـن السكين كان يقترب منهـا رويدا رويدا، وبحركـة سريعـة خاطفة كالبرق شطرها نصفين •

لم تشعـر حميدة بالالم • عيناها ظلتا جافتين لـم تسقط منهمـا دمعة واحدة • وتركت جسدها راقدا على الارض التراب ، ومن تحت فخذيهـا شريط طويل مـن الدم ، احمر قاتم ، يلمع في الشمس ، زحف اليـه النمـل وتكاثف فوق ظهره المتجمد المقوس كظهـر ثعبان ميت • نفخت النمل فدخل التراب في انفها • عطست فاندفع مـن فمها قطعـة دموع متجمدة في حلقهـا • مدت يدهـا الى التراب وردمت النمل • اندفـن الدم واصبحت بقعـة الارض مرتفعـة بعض الشيء كالقبر • داست ببطن قدمها على الجزء البارز من المدفـن • لم تعد الارض مستوية كما كانت•داست فوقها بقدميها الاثنتين،وبكل قوتها المستعادة مشت فوقها • وعند ثنيـة الجدار اطلت برأسهـا ونظرت خلفهـا • وحينمـا لم تجـد احـدا رفعت جلبابها عـن ساقيهـا ونظرت • لم يكـن هناك العضـو المألوف وانما شـق صغير كالجرح القديم المسدود •

وصل اذنيهـا الصوت الخشن المألوف : « حميدة »،

فأسدلت بسرعــة ثوبهــا فوق ساقيها • ورفعت الجردل المملوء بالماء وسكبته فوق الشاة ، غسلت عنقهــا من الدم المتجمد ، وادخلت خراطيم الماء في بلعومهــا المقطـــوع فاندفع الماء مــن فمهــا وانفهــا كالنافورة • ضحــك الاطفــال السبعــة في سعادة ، فاليوم هو العيد ،والشاة قدذبحت، والاواني والصحــون فوق المائدة أعدّت •

وحلّ موعد الغداء ، وجلس الجميع يأكلون فيمــا عدا الام ، التي كانت قد ماتت في حجرة النوم ، وحميدة التي كانت لا تزال بجوار الجردل ، تسكب الماء علـــى الجسد الميت ، وتملأ كفها الصغيرة بالشامبــوه ،وتدلــك الشعر الغزير ، وتدخل اصبعها الصغير في الاذن الكبيــرة وتغسلهــا ، والعين المغمضة ترفع عنهــا الجفــن المسدل وفتحة الانف ، والفم ، والعنـــق ، والشعر الاسود تحت الابطين ، واسفل البطــن •

غسلت الفخذين بعناية ، من تحت ومن فوق ، ومــن الوسط • اتسعت عيناها بالدهشة • كـــان الوسط املس بغيــر عضو ، مسدودا يعلوه شق طويل كالجرح القديم •

هبطت اصابعهــا المرتجفــة الـــى الساقين ، ودست

الليفــة بين الاصابع الملتصقــة وغسلت الحوافر • كانت بقايــا طيــن لا تزال عالقــة بالحوافر • طيــن اســـود تتخلله خطوط صفراء كقش التبن الذي يفرش به الزرائب•

سمعت من خارج الباب الصوت الخشن الآمر :

ــ لا تضيعي الوقت في الحوافر ، سنعطيها صدقــة للجــزار •

شدّت من فوق رف الكتب جريدة الصباح ولفت بها الحوافر • فوق الصفحة الاولى لمحت صورة مليئة بالوجوه المستديــرة ، المكتظة باللحم • تعرفت في الوسط عن وجه سيدها • كانوا يجلسون على شكل دائرة • الصحون امامهم ممتلئة مرتفعــة كأهرامات مدببة، وسكاكين لامعة ،تتهاوى في انتظام فوق الاهرامــات • وتناقصت الاهرامـــات بسرعــة كبيرة حتى اختفت ولم يبق فــي الصحــون الا فتــات •

ظنت ان الاهرامات تلاشت • لكنها دققت النظر في الجريدة فوجدت الاهرامــات كمــا كانت مرتفعة وعاليــة ومدببة ، ولكنهــا اصبحت في مكــان آخر من الصورة ، في موقع آخــر بين المائدة والمقاعد ترتفع من اسفــل فوق

الفخذين وتعلو حتى المثلث المنفرج في نهايـة الضلوع ؛ تحت القلب مباشرة ٠

وانزلقت اصابع حسيدة فوق القلب الاملس ٠ ارتجفت يدهـا وهي تقطع الشريان العلوي وتشطر القلب بالسكين لتغسله من الداخل ٠ كثيرا ما فعلت ذلك بقلوب الدجـاج والارانب والاوز ـ ولكـن قلب الشاة كبير الحجم ، لا يزال ساخنا؛وعضلاته لا تزال تنبض بذبذبة مرتعشة خفية؛ تسري في اصابعهـا الصغيرة ، وتنتقل الرعشة الى ذراعها وصدرهـا وقلبهـا الذي اصبح يدق بسرعـة اكثر ٠

سقطت من جوف القلب المشطور جلطـة دم حمراء ؛ انزلقت فوق رخام الحوض؛ وسقطت فوق قدمها الصغيرة٠ انثنت ومدت يدهـا لترفع الجلطة عن قدمها ؛ لكـــن عينيهـا ارتطمتـا ببطـن ساقها الطويلة النحيلة ؛ يجـري فوقهـا شريط طويل رفيع احمر ٠ ظنت انه شريـان تحت الجلد لكنه كـان يتحرك هابطا فـوق البشرة ٠ لمستـه بطرف اصبعهـا ؛ ثم قربته من عينيهـا ٠ كـان الاصبع مبلـلا بدم حقيقـي ٠

رفعت جذعها الى فوق ٠ فالتقت عيناها المذعورتـان

بعيني امها •عينان خاليتان من الفزع ، باردتان كبركة مـاء آسنة ، صامتان كالقبر ، ثابتتان كعينـي انسان ميت • اسدلت الجفنين فوق العينين الميتتين واسدلت الغطاءفـوق الرأس والجسد • سمعت صوت امها الخافت من بعيـد كأنمـا يأتي مـن تحت الارض : « بلغت يا حميدة » • وناولتهـا سروالا من الدمور الاسمر ، لبسته حميدة تحت الجلباب مرة ولآخر مرة ، فلم يحدث ان خلعتـه بيديها ، وانما هما يدان اخريان ، اصابعهمـا غليظـة مفلطحة ، ورائحتهمـا غريبة يفوح منهـا التبغ • التبغ تعرفرائحته حميدة • كانت تشتريه من الدكان لابيهـا او اخيها او خالهـا او عمها او اي رجل آخر من الاسرة • وحينمـا تقربه من انفهـا تعطس وتسعل •

وحين تسعل ينتفخ شدقاها كشدقي ابيها ، وتقلـد صوته الخشن ، وتقف في صحـن الـدار كمـا يقف ، وتلقي برأسهـا الى الوراء في خيلاء كمـا يفعل ،نافخـة شدقيهـا ، واضعـة يدهـا اليمنى في خصرها •

من يراها في تلـك اللحظة كان يظـن انها حميدو• هـي نفسهـا كانت تظـن انها حميدو• وتدب على الارض بقدمين قويتين وتشمر جلبابها عـن ساقيهـا

الرفيعتين الصلبتين ،وتجري نحو الصبيان صائحة انـــــا حميدو • ويلعبون عسكر وحرامية ، او لعبة القطار ، يمسك كل واحـــد منهم بذيل الآخـــر ، وينطلقون يدبون علـــى الارض ويصفرون •

وترتفع الصفارة في الليـــل • ويرتـــج جسد حميدة الصغير وهي واقفـــة قرب القطار • وتتكثف الظلمـــة مـــن خلفهـــا شاي شكـــل يد كبيرة تندفع بقـــوة في ظهرهـــا وتدفعهـــا الى الامـــام • وتجري حميدة في الظلام، لكن الظلمـــة تنشق بعد لحظـــة عن عشر عيـــون صفراء تلمـــع كالازرار النحاسية ، ونصل ابيض حادّ يتدلى فـــي الخفاء بحذاءالساقين الطويلتين• وتلف طرحتهـــا الســـوداء حول رأسهـــا وكتفيهـــا وصدرهـــا وبطنها ،وتنزلق في ســـواد الليـــل كقطعـــة من سواد الليل • لكن الساقين بنصلهمـــا الحادّ تجريـــان خلفهـــا ، والقـــدمين الكبيرتين تدبّـــان وراءها ، دبيبا لـــه رنين كاصطكاك الحديـــد بالحديد •



حميدو كان لا يزال في الخدمة• في كعب حذائـــه قطعة من الحديد تدق على الاسفلت في بطء وثقـــل كحافر

بغل مصاب بضربة شمس • الشمس كانت حارقة ، فالمدينة هي القاهرة والوقت هو الظهيرة والشهر اغسطس • ورأس حميدو املس حليق بغير شعرة واحدة • القرص الملتهب الاحمر يلتصق بجلدة الرأس ، وعيناه ثقبان تنفذ منهما النار المتجمعة داخل الجمجمة ، وانفه ايضا له ثقبان يقذفان اللهب واذناه بالمثل ، وفتحة الفم ، وفتحة الشرج ، كل فتحات جسمه تغرز النار الحمراء قطعا متجمدة صغيرة وساخنة كالدم المتجلط •

حملق في القرص الاحمر الدائري • رآه قرصين اثنين احمرين ، داخل كل قرص دائرة سوداء كالنني تلمع ، وحول النني دائرة بيضاء صافية كعيون الاطفال • حملق في العينين وتعرف على اللمعة • صاح : « حميدة » ،وشد الآلة الصلبة من جوار فخذه الى فوق ، وصوبها في النقطة المحددة بالضبط ، في منتصف المسافة بين العينين • وسمع صوت ابيه الخشن : « اضغط » •وضغط على الزناد •

سقط الجسد متضرجا بالدماء ، والعينان مفتوحتان ثابتتان مرفوعتان الى السماء ، والسماء مكتظة بالآلهة وقد جلس كل منهم واضعا ساقا فوق ساق ، والساق

العلوية متدلية من بين السحب (وبذلك تكون مرئية بالعين المجـردة) تهتز بحركة افقيـة منظمة كبندول الساعـة • والشمس كانت قد غابت والليل هبط فعـزفت الموسيقـى النشيد الوطنـي احتفـالا بالنصر ، وارتفعت الاكف بالتصفيق حاملة الجسد الميت الى فوق •• لامس انف الميت بطـن قدم احد الآلهـة وشم الرائحة المألوفـة التـي تنبعث من الاقدام التـي لا يغسلهـا اصحابها • اشـاح الميت بانفه بعيدا عـن الآلة ،فارتفع الهتاف وانشق الجراب الاسود عن وسام الاستشهاد في ميدان الشرف •

مد الميت يده الملوثة ببقع سوداء (بسبب جفاف الدم) ليتسلم الوسام • امتدت بسرعـة يد اخرى نظيفـة واظافرهـا مشذبة واخذت الوسام • لوح الميت يده فـي الهـواء في غضب فامتـلأت الظلمـة بكشافات الضـوء الاصفر مستديرة وجاحظة كالازرار النحاسية •

وانفرجت شفتا حميدو في اندهاش ، وسقط جسده الميت بين السيقان الطويلة يتدلى من بينها آلات القتـل الصلبة ، وانفرمت قدمه الحافية تحت الاحذية السميكـة ذات الرقبة • واصبحت الارض كالعجين غاصت بها قدمـه

الثانية ، وساقاه غاصتا الى الركبتين ، ثم الـــى منتصف فخذيه، حتى اعلى الفخذيـــن ، الـــــى منتصف بطنه • بالتدريج كـــان يغوص الى منتصف صـــدره • والتفّت قبضة الارض حول عنقه ، فأرخى رأسه فـــوق الارض ، ووجدهـــا دافئة حانية كصدر امه ، فدفن وجهه بين ثدييها واستطاع ان يضع انفه تحت الثدي الايسر • المكان الامين القديـــم المفضل لديه • لكن امه ابعدته بيدها القويـــة كيد ابيه • ورفع رأسه الى فوق فرأى يد ابيه الكبيـــرة باصابعها الطويلة تلتفّ حول الوسام ، وعيناه الواسعتان السوداوان ذات الشعيرات الدموية تحملقان فيعينيه • مد حميدو يده ، لكن يده رغمالزحام ظلت ممدودة فيالهواء • حملقت العيـــون في اصابعه الملوثـــة بالدم ولم يصافحـــه أحد • (كـــان الناس في ذلك الوقت يحتقرون المقتـــــول ويحترمون القاتل) • وحميدو لم يكـــن قاتلا • هو الذي حدد النقطـــة في منتصف المسافة بين العينين وهو الـــذي ضغط على الزنـــاد وهـــو الذي قتل • لكنه قتل بغيـــــر ان يصبح قاتلا • فالقاتل هو صاحب العار الذي لم يلوث يديـــــه •

لكن العار لم يكـــن عار حميدو ، وكـــان عليـــه ان يغسله فحسب (توزيع الاختصاصات كان احدى سمـــات

التقدم ، فالبعض يقوم بالعار والبعض يقـوم بعمليـة الغسل) • يسكب الماء من الجردل ويغسل كـل شـيء بعناية ، الشعـر والرأس والاذرع والارجل ، وثنيات الجلد تحت الحوافر • ويسمع الصوت الآمر من الداخل يقول : « خذ الحوافر فهي نصيبك » • وتستقر الحوافر داخـل جريدة من الجرائد اليومية ، وتدخل التاريخ باسم الزكاة ، يحملهـا حميدو تحت ابطه ، ويسير في الشارع مزهـوا بها ، ومن حين الى حين ينظـر تحت ابطه ، ويرى الشعر الاسـود الغزير ينشق عن وجه ابيض بغير دم ، والعينان الميتتان واسعتان مرفوعتان الى السماء •

وباستطلاع غريزي حملقتعينا حميدو في السماء ، ورأى النجم الوحيد المحترق ، ذيله الطويل الرفيـع يشي لامعـا فوق السواد كخط من الدم الطازج الذي لميتجمد بعد •ثم هبت نسمة جففت الدم ، واصبح النجـم لونـه اسود ، والسمـاء كتلة واحدة مصمتة بغير مسام علـى الاطلاق •

وهبط رأس حميدو فوق صدره ، فهبط من عينيـه خيط طويل ساخنوانزلق من زاويـة فمه يجـري تحـت لسانه بطعمه الملحي المألوف كمـاء المخلل •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضغط فكه العلوي فوق السفلى وابتلع العلقم • لا مهرب له من الكراهية • انها تغزوه من جميع منافذ جسده ، وتدخل اليه بطعمها المملح المر من شقوق جلده وفتحات جسمه ، وتتكوم في جوفه يوما بعد يوم ، وسنة بعد سنة ، ويصبح جوفه كقاع زلعة المش ، فيملأ فمه بالدخان الاسود ، ويطرد الهواء من صدره ، ويبتلع الدخان وحده •

عرفت حميدة رائحة الدخان •التبغ كانت تشتريه من الدكان • لكن الرائحة هذه المرة مختلفة ، ممتزجة برائحة اخرى لا تعرفها • رائحة دورة المياه بعد ان يحلق سيدها ذقنه • تناوله المنشفة باصابعها الصغيرة ، وترى عينيه في المرآة ، واسعتين تشعان من البياض ومن السواد ضوءا نحاسيا اصفر •

ويستقر الضوء عليها ، رغم انها تختبيء وراء باب المطبخ •جسدها الصغير منكمش تحت جلبابها المبلل ، وكتفاها غير مستويتين • الكتف اليسرى اعلى من الكتف اليمنى ، وجذعها يميل ناحية اليمين ، بسبب سلة الخضار الثقيلة ، تشد ذراعها اليمنى الى أسفل ،وقدمها

اليسرى تلمس الاسفلت الملتهب باطراف الاصابع ،والقدم اليمنى تلمسه بمؤخرة كعبها الحافي • من يراها يظن انها عرجاء • لكـن حميدة لم تكـن عرجاء• كانت جائعـة فحسب • فمدت يدهـا في السلـة وتسللت اصابعهـا الصغيرة الرفيعـة تحت الخضار حتى احست ملمس اللحم الطري • شدت قطعـة ودستهـا بين اسنانهـا قبـل ان يراهـا أحـد •

اسنان حميدة صغيرة بيضاء لكنهـا حادة ، تقطـع اللحـم النيء وتهرس العظم • اسنـان بدائية نبتت فوق فكيهـا منذ قرون ، قبل ان تخترع الشوك والسكاكيـن وغيرهـا من الاجهزة الحديثة (بسبب هذه الاجهزة فقدت اسنان سيدها قوتهـا واصيبت لثتـه بمرض البيوريا) • وعيناهـا ايضـا بدائيتان قويتان ،تريان الاشياء من علـى بعد ، واذناها قادرتـان على التقاط اي صوت مهما بعد • (اذنـا سيدهـا فقدتا ايضا هذه القدرة بسبب اكتشاف المخابرات للاجهزة السمعية الحديثة) •

وسمعت حميدة صوتا، فرفعت عينيها الى فوق• ورأت رأس سيدتهـا يطل من النافذة المزركشة في العمـارة

العالية • وبسبب الارتفاع الشاهق كان رأس سيدتها بحجم رأس الدبوس • لكــن حميدة رأته بوضوح، ولمحت العضلة السمينة المكتظة باللحم تتقلص تحــت فتحتــي الانف الواسعتين نبت فيهمــا ومن حولهــما الشعر • ادركت من اهتزاز الشعر ان سيدتها شمت رائحة اللحم المهروس تحت ضروسهــا • أنكرت بطبيعة الحال ، لكن قطعة لحم صغيرة كانت لسوء حظهــا قد انحشرت بيــن ضرسين ، شدتهــا مــن بينهما اصابع سيدتهــا البضة بالملقاط ، ووضعتهــا فوق كفهــا تحت اشعــة الشمس وارتدت نظارتها الطبيــة وفحصتهــا •

لم تضربهــا سيدتهــا هذا اليوم • حــدثت مشادة بين سيدهــا وسيدتهــا بعد الغداء الدسم ، انتهت بالاتفاق على مبدأ مساواة المرأة بالرجل في الاشراف على الخدم ، واصبح علــى سيدهــا ان يقوم بعمليــة الضرب هــــذه المــــرة •

رقدت حميدة علــى ارض المطبخ • سمعت وقــع القدمين الكبيرتين • اغمضت عينيها وانتظرت • احســت الاصابع الطويلة ذات الاظافر المشذبة ترفع عنهــا الجلباب المبلل • تعرّت ساقاها الصغيرتان وفخذها وردفاها حتــى

منتصف الظهر والبطن • حملقت العينان الصفراوان فـــي البطـــن لامعتين بضوء نحاسي • سقط الضوء الاصفر على البطـــن • بطـــن مشدود ، عضلاته تنقبض بقـــوة ، يهبط الى فخذيـــن بدائيتين ، قادرتين على الحركة في اي اتجاه، وبكل قوة تقاومـــان وترفسان• واندفعت قدمها الصغيرة في بطنه العالي المترهل ذي الثنيات الطولية • امســـــك قدمهـــا في يده الكبيرة • وادرك لاول مرة شكل قـــدم المرأة • فالقدم لها اصابع، خمسة اصابع ينفصل كل اصبع عـــن الآخر • قدم سيدتهـــا لم يكـــن لها اصابع ، اذ ان اصابعها التصقت بعضها بالبعض في كتلة لحمية طريـــــة كخف الجمل •

وزحفت يداه فوق الساقين • واحس حركة العضلات القويـــة تحت كفه، تنقبض وتنبسط • عضلات سيدتهـــا لم تكـــن لها حركة • خامدة ، ساكنة ، تغوص فيها اصابعه بغيـــر مقاومة كمـــا تغوص فـــي كيس من القطن (كـــــان ذلك طبيعيا بسبب موت سيدتها السابق في حجرة النوم)•

بهرتـــه حركة اللحم الحي، كخنزير يخرج فجأة مـــن خرابة عاش فيهـــا سنوات على الرمم واطـــراف الجثث • انتفض بالنشوة فسقطت عنـــــه ملابسه ، ولامس جسده

الساخن البلاط البارد المبلل بماء المسح ، تقلصت عضلاته المرتخية المترهلة وسرى في عموده الفقري تيار كهربي . دبت الحياة في حواسه الخمس وبدأ انفه المرتعش بفتحتيه الواسعتين يختلس من تحت الحوض رائحة القمامة . جذب بكل قوته شهيقا عميقا وملأ صدره بالرائحة النتنة . سرت الرائحة في جسده وسرت معها ذكرى قديمة منذ الطفولة لاول لذة جنسية .

لكن حميدة منكمشة في الركن ، ملتصقة بالجدار ، تسري فوق جسدها رعشة ، وذكرى قديمة لاول ضربة ، وعيناها السوداوان المتسعتان بالذعر ، ثابتتان فوق العصا الغليظة من الخيزران . كانت العصا مختفية تحت ملابسه او وراء ظهره ، ثم في لحظة خاطفة شدها ورفعها في وجهها منتصبة صلبة . وبسرعة تفوق سرعة الضوء صوبها على النقطة المحددة في منتصف المسافة بين عينيها . وضغط على الزناد .

صرخت حميدة . دوت صرختها في الليل المظلم الساكن كصوت الطلقة . تقلبت سيدتها في كفنها الحريري من جنب الى جنب . هبّ بعض الناس (بسبب نومهم الخفيف فحسب) واضيئت الانوار ، وانفتحت النوافذ

المغلقـة والابواب المغلقة ، واشرأبت الاعناق وامتدّت ٠

لكنهـا لم تصل الى شيء ٠ المطبخ له اربعة جدران وسقف وباب ٠ والباب له قفل حديدي وسلسلة حديدية٠ وكل شـيء عاد الى ما كـان عليـه ٠ اطفئت الانوار ، وانغلقت النوافذ والابواب ٠كل الاشياء انغلقت ٠ وعـمّ السكـون ، وتجمعت الظلمة فوق بلاط المطبخ ، وتكثف في الركـن وراء الباب على شكل جسد صغير عار ، يجري من تحته خيط طويل رفيع من الدم ، وعينان واسعتـان دامعتـان تبرقـان في الظلمة كعيني طفل ٠

* *

اللمعة عرفهـا حميدو من على بعد ، منذ كان طفلا، تجذبه نحوهـا كضوء النجم ٠ نجم وحيد ساهر في سماء سوداء مصمتة بغير مسام ، وحميدو يسير وحده في الظلام بكعبه فوق الاسفلت ، عينـاه مرفوعتان نحـو النجـم ، ويداه فوق صدره ملوثتان بدم قديم اسود ، وتحت الاظافر سـواد كالطين ، ومن حول الاصابع بقع بنية قاتمة بلون التبغ ٠ يمزق سعاله الليـل ، ويشق الظلمة بصاقه الابيض ويستقر على الاسفلت بجوار قدميه ،مكورا كقطعة مـن اللحم الابيض تتخللها شعيرات رفيعـة من الدم ٠

اقتنفوا اثره المدمم فوق الطريق وامسكوه واعادوه الى الخدمة • رفع الطبيب باطراف اصابعه النظيفة ذات الاظافر المشذبة سرواله الدمور • فاحت رائحة الجسد الميت ، فأشاح الطبيب بوجهه بعيدا عنه ، وكتب بقلمه الباركر التشخيص : « لا يصلح الا للخدمة بالبيوت » • واصبح حميدو مراسلا (اللقب القديم لخادم البيت) •

واخذوا منه العهدة : الحذاء الجلدي بالرقبة والكعب الجديد ، البدلة والكتفين المحشوتين بالقطن والقش ، والازرار النحاسية الصفراء ، خمسة ازرار فوق كل كتف ، وعشرة فوق الصدر ، والحزام الجلدي العريض ويتدلى منه الجراب يخفي النصل الحاد كالسكين •

تحسس حميدو جسده في الظلام • وجد الجلباب الواسع القديم ، يتدلى فوق فخذيه كجلاليب النساء، وكتفاه نحيلتان وغير افقيتين، ككفتي ميزان غير معدول، الكف اليمنى هابطة الى اسفل تشد معها الذراع والكتف ونصف الرأس الايمن • والسبب معروف • (خدم البيوت كانوا يحملون سلة الخضار باليد اليمنى)• ولان السلة كانت دائما ثقيلة ، مملوءة حتى الحافة بالبطاطس والطماطم والخرشوف ، وفي القاع يرقد الجسد

المذبوح ، والدم الساخـن الاحمر ينشع من الورق الابيض المصقول ، والقلب لا زال يرجف بحركـة غير مرئيـة ، والعينان السوداوان الميتتان مفتوحتان مرفوعتان الى اعلى ، دامعتان ، تلمعان في الظلمة كعيني طفل •

حملق حميدو في عيني الطفل في دهشة • لم تكن لهما لمعـة عيون الاطفال• كانت لمعتهمـا نحاسية كعيون الكبار• ركب الطفل فوق ظهره ، الركبتان فوق العنق ، والفخذان حول الظهر وكل ساق على كل جانب ، وكعب الحذاء بحذاء البطـن •

هزّ الطفل ساقيه كما يفعل الاطفال حين يركبـون الحمير ، سار به حميدو على يديه وركبتيه ؛ والطفل مـن فوقه يهتـز في سعادة ، وفي يده عصا رفيعة من الخيزران• الشمس كانت في منتصف المسافة بين العينيـن ، والشارع اسفلت احمر ملتهب ، والحصى احمر ملتهب • حصاة حمراء دخلت في الركبة اليمنى فتوقف حميدو ليسعل وعجـزت عضلات صدره عن ان تنقبض وتطرد الحصاة •

تدلّى رأسه فوق صدره كـرأس الحمارة المريضة ؛ فاندفع الحذاء في بطنه مدببا كالسكين • صرخ • لكـن عضلات بطنه عجزت عـن ان تنقبض وتطرد الصرخة • لفّ

يديه حول بطنه ليحميه من الحذاء فانقض عليه الطفل وعضّه في بطن ساقه •

دخلت الانياب في لحمه • وصلت العظم حتى النخاع • ضغط فكه العلوي فوق السفلي وابتلع الالم • تكوّم الالم في النخاع مدببا صلبا كقطعة زلط • ضحك الطفل في سعادة وضرب قطعة الزلط ببوز حذائه • طارت الزلطة في الهواء ثم استقرت في البطن • البطن كان ساخنا والصدر ساخن ، مملوء بالدم ، والرأس حليق بغير شعرة واحدة تفصله عن قرص الشمس •

مشت النار في جسده • استسلم لها تماما وتركها تغزوه من جميع منافذ جسده ، فاتخذ وضع الحمارة المريضة وزحف على قدميه وركبته ودخلت الكراهية بطعمها الحارق من مسام جلده وتراكمت في القاع متجمدة وحمراء كقطعة الفحم المتقدة • مدّ يده ليشد آلة القتل • ارتطمت اصابعه بفخذيه الميتتين • العضلات مرتخية متهدلة تحت الجلباب • اختفى وراء باب المطبخ ورفع الجلباب • لم يجد الآلة الصلبة بحذاء الفخذ ، وارتطمت عيناه بالشق المسدود الاسود كالجرح القديم ، فسقط رأسه فوق صدره •

ورنّ الصوت الآمر ينادي • حميدة •خرجت حميدة مطرقة من وراء باب المطبخ • جلبابها المبلل يلتصق بجسدها، وعلى جدار بطنها علامة محفورة في الجلد ، على شكل حذاء • وتحت الجدار تنمو الكراهية كالجنين ، تتكور كالعجين، وتعلو يوما بعد يوم ، تنتفخ بالماء وتتخمر وتفوح الرائحة •

التقطت اجهزة الامن الرائحة • دائما هناك اجهزة للامن، لها عيون ترقب ، وانوف تشمّ • كتمت حميدة انفاسها ومسحت بطن يديها بكفيها قبل ان تمد يدها الصغيرة من بعيد بكوب الماء • التفّت اصابع سيدها ذات الاظافر المشذبة حول الكوب البلوري • واشاح بوجهه بعيدا عن الرائحة • لكن الرائحة نفاذة ، وصلت الى انف سيدتها الميت في حجرة النوم ، فانتصبت شعيراته المرتخية واصبحت صلبة مدببة كالدبابيس •

أنكرت حميدة بطبيعة الحال ، لكن جسدها كان الجريمة • اخذوا منها الجسد وتركوا لها الجريمة • كالنحل يمصّ الزهرة ، يرشف الرحيق ، ثم يلقى المصاصة بعيدا بيد قوية • اندفعت اليد في ظهرها كاللكمة • الطريق كان مظلما ، والليل اسود فحلقت في الظلمة•

تعرفت على قبضة امها في ظهرها ، فرفعت عينيهـا الـى عينيهـا ، وكادت تناديها • لكـن امها كانت واقفة بغير حراك • صدرهـا ثابت ، ورأسها ثابت ، وعيناها ثابتتان ورموشهـا ثابتة •

سارت حميدة بجوار التمثال الحجري وتركته خلف ظهرها • • دبّ الصمت في الليـل وادركت انها وحيدة• جلست على دكـة حجرية بجوار النيل • ملأت صدرهـا بهواء النيل • هواء راكد حزين • دخل الحزن صدرهـا مع الظلمة، فادركت انها ولدت بغير ام ، وان جـدتهـا لابيهـا كانت جاريـة في بلاط سيدهـا ، وانهـا ماتت مقتولـة بسكين ابيهـا •

تركت جسدها فوق الدكة مرتخيا ، مفتوح المسام ، يغزوه الحزن من جميع المنافذ • ملأهـا الحزن حتى الثمالة، واعطاها قوة • والحزن لا يعطي دائما • انه نادرا مـا يعطـي • يختص بعطائه نوعا نادرا مـن الناس ، قـادرا على مبادلته العطاء ، وحميدة قادرة على ان تعطي الحـزن نفسها كاملـة • تتفرغ له وتعيش عليه •تأكله وتشربـه وتهضمه وتجري عصارته في دمهـا ،وتفرزه امعاؤهـا ، وتفرزه مسام جسدها ، ويسيل فـوق جلدهـا كخيـوط

رقراقة ، تلعقها بلسانها وانفها وتبتلعه مرة اخرى في جوفها ، وتهضمه ثم تعود تفرزه •

من يراها واقفة منتصبة في الليل وحدها يظن انها تمثال رمسيس • ذيل الماء يمشي فوق خديه وعنقه وكتفيه وفخذيه وقدميه • يمشي بهوادة ، دون ان يشعر بحركته ، ويظل هناك فوق الجلد ، ورغم نسمة الليل الجافة لا يتبخر، بل يدخل مسام الجلد ،ويعود من حيث اتى الى منبعه الاصلي في رحم الام •

الحزن هو ولا شيء غيره • الجنين الابدي في رحمها تعيش له ويعيش لها • يدخل او يخرج حيثما تشاء له ان يدخل او يخرج • وحينما تريد له الخروج يصبح طفلها • طفل طبيعي ليس كالاطفال الصناعيين الذين يولدون بشهادة مكتوبة بالحبر ويجري الحبر الاسود حيث الدم الاحمر ، واعضاؤهم التناسلية تبتر والشعر يجتث من فوق الرأس ، وبحذاء كل فخذ لعبة اطفال على شكل مسدس •

طفلها لم يعرف اللعب بالمسدسات او العرائس او اي لعب اخرى ، فاللعب للاطفال وهو ليس طفلا • يولد واقفا على قدميه ، ويجري بين اكوام السباخ ويضحك وحده •

هذه الضحكة هي التي تميّزه عن الاطفال • فهي ضحكة بغير صوت ، بغير حركة في عضلات الوجه ، لكن عينيه الصغيرتين تكسوهما دمعة كاللمعة ، تشعّ من تحتها نقطة ضوء ،كنجم وحيد ساهر في سماء بغير قمر •

سارت حميدة في الليل تبحث عن طفلها • دارت حول اكوام السباخ • نظرت خلف صفائح القمامة • رأت بجوار الجدار جسدا صغيرا متكورا حول نفسه • عرفته على الفور • مدّت ذراعيها في الظلام لتحوطه بصدرها• شقّ الظلمة ضوء اصفر وظهرت العين النحاسية • دائما هناك عين مستديرة ترقب بغير جفين كعين الثعبان ، والذيل طويل ناعم• لم تخدعها النعومة ونظرت خلف الذيل • رأت آلة القتل مختفيةتتدلى بحذاء الفخذ • لم يكن ثعبانا • كان حية انثى • لكن حميدة كانت تدرك ان اي شيء يقتل لا بد ان يكون مذكرا ، فصرخت لطفلها : « احترس منه ، سيقتلك ! » •

دخلت الانياب في بطن الساق الصغيرة الرفيعة• سال الدم كذيل طويل رفيع • بلل اصابعها الصغيرة ، وهبط الى بطن قدمها • رفعت رأسها الى فوق ، ورأت عيني امها الواسعتين السوداوين ثابتتين في عينيها ،

تنظران اليهـا في صمت، والطرحـة السوداء تغطـي رأسها وصدرهـا وبطنها • فتحت فمها لتسأل ، لكن الكف الكبيـرة اصبحت فوق فمها ، والانفاس والهواء وحفيف الشجـر كلهـا اصبحت بغير صوت ، تجمدت في كتلة سوداء صماء بغير مسام ، والطرحـة السوداء ذابت فـي الليـل كمـا تذوب قطرة الماء في البحر ••

لكن الساقين تدبان من خلفهـا ، طـويلتين شاهقتين كالموجة العالية ، تتبعهـا في الخضم ، ترصـد مكانـها ، تغوص معهـا الى القاع ، وتطفـو كالجثث فوق السطح، وتتـوه معهـا في وسط البحر ، ثم تعـود تظهـر عنـد الشط ، وترتطم معهـا فوق حافة الصخر ؛ وتضيع فـي الزبد الابيض ، تتأرجح معها بين المدّ والجزر •

المد كـان ضعيفا والجزر أضعف • فالبحر لم يكـن بحرا ، وانمـا نهـر النيل ومياهه راكدة في القاع ،حركتها بطيئة ، ثقيلة ، كقدم نصف مشلولة ، تدوس فـوق الارض وتثبت ولا ترتفع مرة اخرى لكـن حميدو يشدهـا بكل قوته ، بكـل عضلات الساق الرفيعـة المعوجـة ، وترتفـع القدم فوق الارض وتثبت ، ولا تهبط مرةاخرى، لكـن الارض تشدهـا بكل قوتهـا فتسقـط فوقهـا ثقيلـة كقدم من حجر •

الصباح كان مبكرا والشمس لا تزال مائلة ، فارتسم ظله فوق الارض . طويل ورفيع معوج . كقوس قزح . الرأس حليق ، والكتفان غير مستويتين ، كتف اعلى من كتف ، وساق اطول من ساق ، كالاعرج ، والاطفال من خلفه يضحكون ، ويركبون فوق ظهره .

اصوات الاطفال وصراخهم يترامى اليه من فوق رأسه ،واقدامهم تدبّ فوق ظهره كعجلات القطار ، كل واحد يمسك بذيل الاخر ، ويصفرون ، وترتفع الصفارة في الجو فيجري كل منهم ليختفي من « المساكة » وراء كوم سباخ او في الزريبة او خلف عمود النور .

عمود النور كان طويلا ممتدا في السماء ورأسه يلتصق بالقمر . القمر كان نوره ابيض ، سقط على وجه حميدة وهي مختفية وراء العمود ، فأصبح وجهها ابيض ،وذراعاها بيضاوين ، وساقاها بيضاوين ، وجسدها ابيض املس منزوع الشعر . لكن منابت الشعر ظلت بارزة في قشعريرة، سرت فوق جلدها .

امتدّت يدها البيضاء ولمست جلدها . جسدها وحده هو الذي يطمئنها . كل الاشياء الاخرى خارج جسدها غير مطمئنة . اجسام غريبة تكمن في الاركان ،

ووراء الجدران وخلف الابواب ،وفـــي ثنيـــات الشوارع المظلمة ، وفي زوايـــا كل شيء • الزوايـــا من الخارج تبدو ملســـاء بريئة ، كأنما لا شيء داخلها ، ولكن حينما ينفرج الضلعـــان وتتباعـــد الساقان تظهـــر آلـــة القتل بوضوح صلبـــة ومنتصبة •

تصرخ جميدة • صرختها غريبة ، ليس لهـــا صوت الصرخة المألوف حين يصرخ الانسان فزعا او طلبا للاستغاثة• فلم تكـــن حميدة تستغيث بأحد • كانت تعرف ان الطريق خال ليس فيه احد ، والنوافذ مغلقة والابواب مغلقـــــــة والانوار مطفأة والاصوات معدومة ، وكل شـــيء معدوم كالصـــوت •

لم تكـــن صرخة استغاثة ، ولكنها حادة وطويلـــــة وممتدة ، كأنهـــا ملاييـــن الصرخات اتصلت والتحمت في صرخـــة واحدة تمتد بامتداد الليـــل ، وتتلحـــم بملاييـــن الذرات السوداء التـــي تصنع الظلمة والصمت •

ولم تكـــن ايضا صرخـــة فزع او خوف • لم تكـــن حميدة تخاف الظلمـــة او الصمت او حتى الموت • فهي جزء من الظلمـــة ، وصوتهـــا هو الصمت ، اما الموت فهو يعيش معهـــا • تحمله كالجسد الثاني على جسدهـــا • كشخص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آخر ميت يعيش داخلها • يحتل الفراغ في جوفها ويفـرد ذراعيـه وساقيه ويتمدد ، وتفوح رائحته من عينيهـا واذنيهـا وانفهـا وفمهـا وجميع فتحات جسمها • وفـي الليـل حين تشتد الظلمة وتشتد الوحـدة تمتدّ يدهـا فتحسه الى جوارها ، ملاصقا لها ، وفي حضنهـا انفاسـه تختلط بانفاسهـا وحرارته كحرارة جسمها •

وضعت حميدة يدها على ظهرها فشعرت بالامان • جسدها ساخن ناعم املس الزوايا • من يراهـا من الخلف يظـن انهـا طفل • وحين تستدير ويرى عينيها يدرك انهـا عجوز ووجوه العجائز كوجوه الاطفال ليس لهـا جنس • وحين تهبط العين الى بطنهـا النامي بالجنين الحي يعرف انهـا امرأة • ويحتار المرء في تحديد عمرها ، فالحقيقـة ان حميدة ليس لهـا عمر • وهذا هو حال الاطفال الذيـن يولدون رغم انف الموظف الحكومي الذي يحدد تاريـخ الولادة • وانهم يعيشون فوق مستوى الحكومة ، وفوق مستوى التاريخ ، وفوق مستوى الزمـان والمكـان ، لا ينتقاون كالبشر العاديين من مرحلـة الطفولة الى الشباب الى الشيخوخة ، ويعيشون رغم انف الموظف الحكومـي الذي يحرر تواريخ الوفاة • ينجون من الزمـن كالآلهـة ،

ويعيشون الى الابد ، حياة واحدة ممتدة بغير مراحل •

بولدون كبارا ثم يصبحون عجائزبغير مرحلة طفولة او شباب • ثم يرتدون فجأة من الشيخوخة الى الطفولة او من الطفولة الى الشباب • يرتدون في لحظة سريعة خاطفة اسرع من قدرة العين على الرؤية ، فاذا بالعين عاجزة عن اكتشاف حقيقتهم ، ويبدو الواحد منهم طفلا وشابا وعجوزا في اللحظة نفسها والمكان نفسه • واحيانا يسيرون في الطرقات وهم موتى وتكاد تزكم رائحتهم الانوف ، ومع ذلك تظل العين عاجزة عن التفرقة بينهم وبين الاحياء •

التجاعيد في تلك الاحوال لا تهم كثيرا ،لانها لا تبدو للعين تجاعيد وانما تلك الخطوط الطبيعية التي تظهر على وجه الطفل حين يضحك بشدة وبغير صوت مسموع •

حميدة كانت لا تزال وراء عمود النور ، وجهها متورم مستدير تحت الضوء ، ابيض بلون الدقيق ، تخفي تحت المسحوق التجاعيد ، وشفتاها المشققتان (بسبب الجوع) تغطيهما قشرة حمراء مدممة ،وصدرها بارز من فتحة ثوب مقطوع ، وبطنها بارز ، وكعباها المشققان

بارزان من حذاء كالشبشب بغير كعب ، وشعرها غزير اسود كقطعة من الليل يغطي بالسواد رأسها وصدرها وكل جسدها ، ويطل من تحته عنقها الابيض كجذع شجرة تخرج من غابة نبتت جذورها في ارض رطبة .

من يراها يظن أنها امرأة ليل ، مع انها لم تكن امرأة ولم يكن الوقت ليلا . كانت الشمس رأسية في منتصف المسافة بين العينين ، وحميدة تحملق في القرص الملتهب الاحمر ،لا يطرف لها جفن ، ولا تختلج في وجهها عضلة . تنظر اليه بكل قدرتها على الصبر . وتراه بوضوح في مركز الدائرة كالقوس ، طويل ورفيع ومعوج ، يتحرك امام عينيها بحركته البطيئة ، كتف اعلى من كتف، وساق اطول من ساق ، كالاعرج . عرفته على الفور وكادت تهتف حميدو . لكنها خشيت ان يكتشف مكانها وراء العمود ، ويتعرف على بطنها المنتفخ، ويشد آلة القتل .

أطبقت شفتيها وكتمت انفاسها . لكنه شم رائحتها (رائحة حميدة قوية نفاذة كرائحة الموتى) فتوقف عن المسير ، ومدّ يده الطويلة الرفيعة خلف عمود النور . لم

تمسك يده شيئا • ناداها بصوت مألوف غير مسموع مقلدا صوتها :« حميدة » ، وثنى جذعه فالتوى نصفه الاعلى فوق الاسفل مقلدا شكل جسدها • كان التقليد مصنوعا باتقان شديد (بسبب تقدم الصناعة والتكنولوجيا) الى درجة ان حميدة اختلط عليها الامر ، وظنت ان الصوت صوتها ، والجسد جسدها ، فخرجت من وراء العمود مطمئنة ، وسارت كعادتها مطرقة رأسها ، وحينما رفعت رأسها الى فوق ارتطمت عيناها بالعينين الصفراوين ، فرأتها من هول المفاجأة أربع عيون ، وتضاعف العدد في لحظة خاطفة ، وحوطتها العيون الصفراء ، عشرا فوق الصدر من الامام مستديرة ومتراصة في وضع رأسي ،وفوق كل كتف خمس في وضع افقي ، تشع كل عين ضوءا نحاسيا اصفر •

ورن الصوت المعدنيفوق الاسفلت كاصطكاكالحديد بالحديد • ما اسمك ؟

قالت بصوت غير مسموع : حميدة •

مشت الموسى الحادة فوق جلدة رأسها وسقط شعرها الناعم الغزير في الجردل ، وهبطت الموسى الحادة الى جسدها ، ومشت فوق جلدها تجتث الشعر ، وحينما

وصلت الى اسفل البطن عثرت بين الشعر الاسود على البرعم الصغير الابيض،كالعصفور الوليد ، فاجتثته من جذوره ، وتركت مكانه جرحا عميقا في اللحم كالشق المسدود . (سميت هذه العملية الجراحية « بالطهارة » في ذلك الوقت وكان هدفها ان يصبح الانسان « طاهرا » بغير اعضاء جنسية) .

رقدت حميدة فوق الارض الاسمنت ، تحوطها اربعة جدران من الاسمنت ، وذراعاها وساقاها مشدودة مربوطة في حزمة واحدة، واحزام من المعدن الصلب ،يتدلى قفله الحديدي من بين فخذيها (دخل التاريخ باسم حزام العفة) ، وتصطك سلسلته بالارض الاسمنت كلما حركت ساقيها او ذراعيها .

جسدها الناعم الصغير من تحته بركة من الدم ، تدخل في شقوق الارض ، وفوق الجدران دم على شكل اصابع آدمية ، دم اسود قديم ، كالبقع ،ملايين البقع، من كل عمر ومن كل جنس ، اطفال ورجال ونساء وعجائز بيض وسود وصفر وحمر ولكل واحد بقعة مميزة كبصمة اليد .

وضعت حميدة طرف اصبعها الصغير في الشق ،فخرج

مبللا بالدم ، مسحته في الجدار، وطبعت فــوق الاسمنت بصمتها كالختم • (الأميون جميعا امثــال حميدة يختمون على الوثائق الرسمية بهذا الشكل) • وتمتــد الاصــابع السوداء الملوثة بالدم تطبع ختمهــا فوق الوثائق • ملايين الوثائق ومن فوقهــا ملاييــن الاختام ، أختام ســـوداء خطوطهــا متعرجة مشرشرة كارجل الصراصير، او الذباب او الجراد • كثيرون ومنتشرون فوق الارض ،بالليــــل وبالنهار ، فوق الكباري ، فوق السواري ، عنــد ثنية كل شارع ، وراء كل بيت ، خلف كل جدار ، داخل كل شق من شقوق الارض ، رؤوسهم العارية الحليقة تطل فوق السطح، واجسامهم النحيلة مقوسة داخل الشق وبطونهم مجوفــة خالية من الاحشاء الداخلية ، بغير كبد وبغير قلب وبغيــر معدة ، وبغير مصارين والجوف الواسع الخــاوي اصبــح مخزنــا سريــا يعبئون فيه الكراهية (المكــان الوحيــد الذي لا تصل اليه اجهزة الامن في ذلــك الوقت • تقدمت الاجهزة العسكريــة حديثا واخترع في الطب جهاز للاشعة يكشف عن الاجسام الغريبة في جسم الانسان ، ومنظــار الكتروني يوضع في فتحة الشرج ويكشف عــن محتويات التجويف الداخلي) •

سقطت اشعه اكس فوق بطنها المنتفخ ٠ ظهرالتجويف ممنوع حتى الحافة بالكراهية ،طبقة فوق طبقة ، فوق طبقة ، ملايين الطبقات الرقيقة كرقائق من معدن شفاف ، تكونت بعضها فوق بعض في كتلة معدنية مصمتة وصلبة، تحسسها الطبيب باصابعه الناعمة المشذبة الاظافر ثم صرخ: بارود ٠ فانهالت المعاول تشق الارض وقلبوا الشقوق رأسا على عقب ، وعثروا على خزائن البارود جميعا (اشاد التاريخ بالانتصار الذي حققته اشعة اكس في علاج الاورام السرطانية من الجسم) ٠

لكن السرطان مرض خبيث ، أخبث من التاريخ ، والورم ظل ينمو داخل بطن الارض ، وحينما تضع حميدة يدها تحتها تحسه ساخنا فوق كفها، سخونة جسمها وتشعر بالطمأنينة فتقرب اصابعها من انفها ، وتشم الرائحة المألوفة ، كرائحة كوم السباخ ، او صفيحة القمامة ، او قطعة اللحم الميتة ، تشمها بفتحتي أنفها وتملأ بها صدرها، فهي رائحة حياتها ٠

حرك حميدو رأسه ناحيتها ٠ جذبته الرائحة المشتركة ٠ كان من الممكن ان يبتعد ويهرب ولكنه اتجه نحوها بحكم المصير المشترك ٠ توقف عند الجثة الميتة

فاردا قامته الطويلـة راسما ظله على الاسفلت ، طويـلا ورفيعا ومعوجا ، وبحذاء الفخذ يتدلـى النصـل الابيض وعليه بقع سوداء كالدم ـ فتح صدره وملأه بهواء الليـل، ادرك انه ولد بغير ام ، وان جده لابيـه كان جنديا فـي جيش محمد علي ، وانه قتل في السجن •

عرف فجأة ان السجن مصيره ، وكأنه حقيقة قديمـة يعرفهـا كالموت ، فلم يقاوم • ترك جسده مرتخيا في قبضة اليد الحديدية • تدرب في سنوات الاسر ان ارتخاء الجسد يضعف التوتر • مسام الجلد متمدد وتتفتح ويخرج مـن عينيه واذنيه وانفه وفتحة الشرج • ويصبح كل شيء اقـل ضراوة • الضرب اقل ضراوة ، والنفخ اقل ضراوة والكي بالنار (قبل اكتشاف الكهرباء) اقل ضراوة •

ويسقط جسده مرتخيا فوق الارض ، يتمدد بكـل قدرته على التمدد ، وتجري من تحته ذيول رفيعة من الدم، تدخل شقوق الارض وفوق الجدران بقع سوداء كالدم ، كل بقعـة على شكـل خمسة اصابع وكف• ملاييـن البقـع ، من كل عمر ومن كل جنس • اطفال ورجال ونساء وعجائز بيض وسود وصفر وحمر • ولكل واحـد بقعـة مميـزة خاصـة بـه •

نهض حميدو يستند على الجدار ،وطبع بصمته فوق الاسمنت كالختم (المحكوم عليهم جميعا امثال حميدو يختمون على محاضر البوليس بهذا الشكل) وتمتد الاصابع السوداء الملوثة بالدم تطبع ختمها فوق المحاضر • ملايين المحاضر بعضها فوق البعض ، متكدسة كأجساد الموتى في يوم الحشر (قبل اكتشاف الاتوبيس) اجساد مرصوصة في خطوط افقية مصفوفة في وضع عكسي ، الرأس بجوار المؤخرة ، والمؤخرة بجوار الرأس ، متراصةفي كل شبر من الارض او السقف ، متلاصقة بغير مسافات ولامساحات خالية تسمح بمرور الهواء او امتداد الساق او الذراع •

اغمض حميدو عينيه وفتح فمه وتأوه• تبعه الاخرون بصوت مماثل • ارتفعت ملايين الاصوات في الفضاء المظلم وصنعت صمت الليل • ضغط الصمت بكثافته وثقله على أذنيه ففتح عينيه ورأى في وجهه القدمين المشققتين • عرفهما على الفور وهمس بصوت مقلد صوتها : حميدة • لكنها لم ترد ، كانت ميتة ، جسدها ممدود فوق الارض ، ووجهها ناحية السماء ، يسقط عليه ضوء القمر الابيض ، فيبدو مستديرا متورما كالمثانة المنتفخة •

فتحت فمها وتأوهت (بسبب ضغط البول) • ارتفعت

ملايين التأوهـــات في الفجر وصنعت النشيج الوطني •
(كانوا يسمونه النشيد الوطني) •

سمع حميدو النشيد فأدرك ان النهـار طلع • جرّ ساقيه من تحت الحزام الحديدي وسار الى دورة المياه • المكان الوحيد من العالم حيث يشعر بالتفاؤل ، ويتبـادل من وراء الحائط بضع كلمات ، وينبعث من نصفه الاسفل خيط البول ، رفيعا ومقوسا كقامته ، ونفـــاذ الرائحـة كرائحته ، فيشعر بمرح مفاجىء ، ويرمق من حوله خيوط الماء الصفر تلمع في الضوء كأقواس النصر فيضحك مقهقها •

ترتفع القهقهات من دورة الميـــاه ، قهقهات عالية ، ملاييـــن القهقهات ، فالاعداد تتزايد يوما بعد يوم ، وكـــل الاجهزة يمكن أن تتعطل فـــي ذلك الوقت الا الاجهزة التناسلية والاجهزة اللاسلكية بطبيعة الحال •

ويسري الصوت كما يسري أي صوت وبالسرعــة نفسها (عن طريق أحد الاجهزة) ، ويدخل الاذنين الكبيرتين كالحصاة المدببة ، ويرتفع الاصبــــع النظيف ذو الظفـــر المشذب ويسلك الاذنيـــن ، وتسقط الحصاة المدببة فـــي كفه السمينة المكتظة باللحم ، فيرفع عينيه في عيني الموظف المختص ويقول : أيضحكون ؟ ••

ويخفض الموظف عينيه كعادة الموظفين في حضرة سيده : لا يا مولاي ، يبولون فحسب •

حميدو كان لا يزال واقفا في دورة المياه ، وخيط الماء لم ينقطع بعد ، حين رأى الموظف مقبلا يفتش ، شعر بالخوف • والخوف كالموت كائن عضوي من لحم ودم ، سحب الدم من رأسه وذراعيه وساقيه وأحشائه الداخلية ، وتجمع في نقطة واحدة أسفل البطن ، انتفخت وتمددت كالمثانة • وكان الموظف لا زال واقفا أمامه ، فاتحا ساقيه في غطرسة ، شاخصا في عينيه بشجاعة الموظفين في غيبة سيده ، وفمه مفتوح ، ولثته متقرحة مصابة بالبيوريا (كلثة سيده) •

وشعر بألم حاد أسفل بطنه • وتلفت حوله • كانوا يضيقون الخناق عليه ، والاجساد تضغط عليه من كل جانب ، بغير مسافة أو مساحة خالية • ولم يجد مكانا خاليا سوى الفم المفتوح المتقرح ، فصوّب نحوه شريط الماء ، وأفرغ الخوف كله من جسده •

فتح حميدو عينيه ، وأحسّ من تحته البركة ، دافئة كجسده ، نفاذة الرائحة كحياته • أدرك انه لا زال حيا ،

وتفتحت شهيته للاكـــل • مدّ يده في الصحن فانتفضت ملايين الحشرات السوداء الصغيرة وهاجت من حوله في مرح ، بعضها يطير ، وبعضها يجري ، وبعضهـا يزحف • التصق بعضها بالسقف ووقف عـلى الجدران ، ودخـل آخرون الشقوق وبقيت واحدة في كفه •

نظر بين ساقيها ورأى الجرح القديم المسدود فأدرك انها أنثى ، وانها ميتة • ضغط عليها بالكف الاخرى فماتت مرة أخرى • طرقع أصابعها الميتة فالتقط جهاز التسجيـل صوت الطرقعة • (كان هناك جهـاز للتسجيل من آخر طراز بحجم الحمصة ثبت في عضو من جسمه) • طرقـع أصابع قدمه اليمنى بكبرياء وزهو • حركته في التاريخ لها أهمية • والاهمية هي سبب ذلك الذعر الـذي يراه في عيون موظفي الدولـة ، حين تصوّب نحوهم العدسات المفتوحة ، فاذا بأي حركة تصدر عنهم تدخل التاريخ على الفور ، وان كانت مجرد طرقعـة اصبع (بسبب تيبس المفاصل بعد الاربعين) ، أو اصبع يرتفـع ليهش ذبابة وقفت على الانف •

هزّ أصابع قدمه بحركة مبتكرة • انه رغم كل شيء يحب الاصالة ويكره التقليد • كم سجل التاريخ ركاما من

الحركات المقلدة غير الاصلية كحركات القرود ، ووجوه وأصابع متشابهة مكررة كلها تقليد في تقليد • ركام مكدس بعضه فوق البعض ككوم السباخ • كل يوم ترقد البقرة ، وفي الفجر تدخل أمه تلم الروث ، ثم تجمعه تحت الشمس بعضه فوق البعض ، وحين يجف في اليوم التالي يصبح راسخا في التاريخ •

ظهر العسل الاسود متجمدا في قاع الصحن ، واستقر في قاع معدته كقطعة من القطران • قضم قطعة بصل وأصلح بها طعم العلقم • أشعل قطعة تبغ وملأ بالدخان صدره وبطنه فشعر بما يشبه الشبع ، وتجشأ بصوت عال ينم عن الثقة بالنفس • (الذكور فقط هم الذين كان يحدث لهم ذلك) •

سمعت حميدة الصوت • تعرفت فيه على رائحة التبغ • كانت تشتريه من الدكان لابيها أو أخيها أو خالها أو عمها أو أي رجل من الاسرة • ويناولها البائع قطعة حلوى ، تضعها في فمها ، وتخفيها تحت لسانها ، وحين يطالبها بالقرش تفتح يدها فلا تجد شيئا ، وتفتح عينيها فتجد المصباح كذؤابة الضوء ، تحتضر ثم تموت بنفخة

هواء واحدة • وتسد الظلمة الباب كالجسد الطويل الضخم الا من ثقبين مستديرين في أعلى الرأس ينفذ منهما ضوء أحمر بلون الشفق •

همست بصوت خائف غير مسموع : « من أنت ؟ » • رد بصوت كصوتها خائف وغير مسموع : « حميدو » • أغمضت عينيها حتى لا يتعرف عليهما ، تركت ذراعيه الطويلتين تحوطانها ، وانفاسه الساخنة تدفئها • كان الفصل شتاء وأذناها الصغيرتان الناعمتان كقطعتين من الثلج •

همس في أذنيها بنفسه الساخن : من أنت ؟ تركت أذنها تحت فمه ولم ترد • تظاهرت بالنوم وخبأت رأسها في شعر صدره الغزير • وحينما أحست الاصابع الكبيرة ترفع عنها الثوب كتمت أنفاسها ، ولم يعد صدرها يعلو أو يهبط ، وأصبحت ميتة •

لكن الشمس في الصباح سقطت فوق عينيها • ورأت الجسد الطويل الى جوارها ، طويلا ورفيعا ومعوجا • كتفاه غير مستويتين تشبهان كتفيها ، وأصابع يديه متورمة متقرحة من ماء الغسل كأصابع يديها ، وأظافره سوداء

كأظافرها • عرفت على الفور انه جسدها فاحتضنته بكل قوتها ، وضغطت صدرها على صدره ، فأحست المحفظة الجلدية تحت ثديها الايسر • كانت جائعة فمدت يديها وسحبت المحفظة بسرعة قبل أن يراها أحد •

اختبأت وراء جدار وفتحت المحفظة • رأت صورتها بالطرحة السوداء تشبه أمها ليلة زفافها ، ووصية بخط أبيها يذكره بغسل العار ، وأربعة جنيهات وبريزة (البريزة هي العشرة قروش في ذلك الوقت) •

أكلت بالبريزة ، واشترت بجنيهين ميني فستان (وهو الفستان المصغر الذي كان شائعا في ذلك الوقت بين الزوجات المحصنات حتى لا يظهر من أجسادهن المحرمة الا الاذرع والاكتف والصدور والافخاذ فحسب) • واشترت بالجنيهين الباقيين حذاء له كعب عال رفيع وليس له وجه • (اختفاء وجوه الاحذية في ذلك الوقت كان هدفه الكشف عن طلاء الاصابع الاحمر بلون الدم ، أما الكعب فكان موجودا ليخفي تشقق أقدام النساء بسبب الخدمة بالبيوت) •

وسارت حميدة في الشارع تتأرجح على الكعب

العالي ، وذراعاها عاريتان ، وفخذاها عاريتان ، وعنقها عار حتى منتصف ثدييها • أصبحت تشبـــه سيدتها ، ومرت بحذاء الشاويش (الاسم الشائع للشرطي في ذلك الوقت) فلم يقبض عليها،وتركها تمر امامه مطرقا رأسه وخافضـا عينيه ناحية الارض (كان اسم هذه الحركة « غض البصر » أمام المحصنات من النساء ، وقد تدرب عليهـا في سنوات الدراســة) •

رفعت رأسها الى فوق ، وسارت بخطوات متأرجحة مهتزة • اهتزت كتفاها العاريتان وظهرت الكتف اليسرى أعلى من الكتف اليمنى • والثدي الايسر أعلى من الثدي الايمن (كان ذلك بسبب المحفظة المنتفخة المختفيــة تحت الثدي الايسر) • واهتز الردفان أيضا ، واحدهمـا أعلى من الآخر •

ابتعدت عن الشرطي بضع خطوات وتحسست المحفظة• جلدها ناعم كاللعاب يجري فوق أصابع اليد بعد قضمــه فطيرا بالسكر ، وتيار من الدم الساخن يسريُ من ثديهـا الايسر الى بطنها وفخذيها وقدميها ، ثم يصعد الى رأسها وأذنيها وأنفها ، ويهبط مرة أخرى الى قلبها ، في دورتــه

العادية المتكررة ، باعثا في الخلايا الساكنة حركة جديدة لها لذة .

حركت فكها العلوي فوق السفلي ومضغت اللذة . ذابت اللذة في اللعاب فابتلعتهما . اختلطت اللذة بالدم ودارت معه من الرأس الى القدمين ومن القدمين الى الرأس . وبدأ رأسها يدور ، فأسندت ظهرها الى عمود نور ، وأسدلت جفنيها فوق عينيها ، فأصبح الشارع مظلما، والسماء سوداء بغير قمر . سقط الضوء المستدير الازرق فوق وجهها . عرفته على الفور (كان سيدها يطلي فوانيس عربته بطلاء أزرق حتى لا يراه أحد أثناء جولاته الليلية) . فتح بابه وهبط من العربة ، ثم استدار حولها وفتح لها الباب . انتظر حتى دخلت وجلست ، فأغلق الباب ، ثم استدار مرة أخرى حول العربة حتى وصل الى بابه ، ففتحه ثم جلس وأغلق الباب . (كان سيدها قد تدرب على هذه الحركة الدائرية في كلية الآداب) .

انغرز كعبها العالي الرفيع في بساط سميك طري كالعجين فانخلع حذاؤها . وظهر كعباها المشققان فأخفتهما تحت الملاءة الحريرية . كان جسدها قد أصبح في وضع

أفقي فوق شيء طري ، اكثر طراوة من العجين ، فارتخى ردفاها المشدودا العضلات (بسبب طول الوقوف وراء العمود) ، وبدأ جسدها يغوص في العجين ، القدمان ، ثم الساقان ، ثم الفخذان ، ثم الصدر فالعنق . ولم يبق الا الرأس بارزا فوق السطح .

بدأ الرأس يغوص بالتدريج ، الذقن ، ثم الفم ، ثم الانف . انعدم الهواء ، فاتسعت عيناها السوداوان وملأهما الرعب . والرعب كائن عضوي من لحم ودم ، تجسد أمامها على شكل مخلوق غريب مشوه . رأسه انسان وجسده قرد . رأسه عار حليق أملس ، وصدره غابة شعر واليتاه كرأسه عاريتان ملساوان تشف بشرتهماعن لون الدم الاحمر كبشرة وجهه ، وشفتاه حمراوان ، منفرجتان ، يظهر بينهما لسانه الطويل الحاد كنصل أبيض له حافة معدنية صلبة ، وفي نهايته ثقب مظلم يكمن فيه الموت .

صرخت صرختها المكتومة غير المسموعة ، وأسدلت جفنيها فوق الرعب زحف الرعب الى حلقها (خلال القناة الدمعية التي تصل العين بالانف) وتكوّر كالغصة . شدت عضلات حلقها وبصقته بكل قوتها فانبعثت من فمها وأنفها وأذنيها خيوط رفيعة كالنافورة .

ضحك سيدها في سعادة الاطفال ، فقفز خده الممتلىء باللحم وسدّ عينيه تماما • أدركت انه سينام بعد لحظة • (كان السلام الملكي قد دق معلنا انتهاء الحفل الترفيهي) • وحينما ارتفع شخيره في الفضاء فتحت الازرار الذهبيـــة فوق صدره ورفعت المحفظة الجلدية الثقيلة الضاغطة على قلبـــــه •

فتحت الباب بهدوء ، وسارت عـــــلى مهل بخطوات واثقة • فتحت باب سيارتها بمفتاح فضي لامــــع كمفتاح سيدتها • انزلقت العربة فوق الاسفلت الناعم كقارب رشيق يسبح • مرت بحذاء الشرطي الواقف على الرصيف منتصبا كعمود النـــــور ، فاهتز (كأنما بمس كهربي) وارتفعت سبابة يده اليمنى ولامست طرف أذنـــــه اليسرى (حركة مقدسة في ذلك الوقت ترمز الى حب الوطن) •

أطلت من نافذة السيارة برأسها • سقط ضوء القمر على وجهها • كان الطريق خاليا الا من أعمــــدة النور ، منتصبة على جانبي الطريق في وضع رأسي ، ومن ناحية اليمين ترتفع الاذرع عاليا ، ومن ناحيـــة اليسار رشق في كـــل اذن اصبعـــا •

تعرفت على البقع السوداء فوق الاصبع ، فهمست بصوتها الخافت : حميدو ! لم يسمع حميدو شيئا ، وظل واقفا منتصبا ، رأسه مرفوع نحو السماء ، واصبعه الاسود في أذنه (جميع المسافرين الى الخارج كانوا يرون في مدخل كل بلد هذا النصب التذكاري للجندي المجهول) .

مدت يدها وأمسكت يده . أصابعه كأصابعها والخطوط فوق كفه تشبه خطوطها . أشفقت عليه بحكم المصير المشترك ، وحاولت أن تثني ذراعه المرفوعة في اعياء . لكن الذراع الحجرية أبت الانثناء وظلت مرفوعة في الهواء . رفعت عينيها الى فوق ورأت العينين الواسعتين السوداوين تلمعان بدمعة حقيقية كدمعة الاطفال . سقطت الدمعة على خدها ساخنة ، وزحفت من زاوية فمها مرة كالعلقم تحت لسانها ، فابتلعتها . سقطت واحدة أخرى ساخنة على خدها ، وزحفت الى زاوية أنفها مرة كالعلقم فابتلعتها . وبدأ الحزن يغزو جسدها من جميع المسام والفتحات ، يدخل أنفها وفمها وأذنيها كمسحوق ناعم ، مدبب الذرات ، كقطع الزجاج المبشور ، تمزق الاغشية الرقيقة التي تخلف الانف والفم والشعب الهوائية ، فتسعل بشدة ، وينز من صدرها سائل أبيض يجري في قناة

طويلة ضيقة تصل القلب بالحلق بالانف بالاذنين بالعينين ، فاذا بها تمخط لعابا من عينيها ، وتبصق دموعا من أنفها وفمها وأذنيها ، وكلها بيضاء تتخللها شعيرات من دم .

رفعت وجهها الى ضوء القمر . أصبح بياضه شديدا خاليا من شعيرات الدم ، وملامحه غريبة تشد البصر لتناقضها الشديد . فالذقن صغيرة مستديرة وناعمة كذقن طفل ، والجبهة بارزة خشنة مجعدة كجباه العجائز . الشفتان عذراوان منفرجتان عن حرمان لا يرتوي كشفاه الزوجات العفيفات ، والخدان بارزان في شراهة حادة لا تشبع كخدود الازواج المحترمين ، والانف مستقيم عال في كبرياء ، سفيه كسفاهة المجرمين والخارجين على القانون ، والاذنان صغيرتان مستكينتان بغير حركة كآذان موظفي الحكومة ، والعينان سوداوان واسعتان ، فيهما نظرة بدائية وقحة مرفوعة الى أعلى وثابتة ، لا تغض البصر كعيون النساء المحتشمات المطرقات الى الارض حياء من أفكارهن الوقحة .

ملامح غريبة شديدة التناقض ، والتناقض لشدة الغربة كان منسجما مع الملامح على نحو متسق مألوف ،

يبلغ من شدة انسجامه واتساقه درجـــة من الجاذبية غير المألوفة ، تشد اليها البصر شدا ، كأنما ليس لها وجه واحد وانما وجهان أو ثلاثة أو أربعة ، أو ان وجهها ليس وجها وانما شيء آخر •

شيء آخر مثيـــر للحيرة والارتبـاك ، والقلق بـل والغضب • فالانسان يغضب بطبيعة الحال حين ينظـر في وجه انسان آخر فلا يرى نفسه وانما عورته ، ويشتـــد غضبه بطبيعة الحال أيضا اذا كانت عورته غير مألوفة في شكلها أو غير طبيعية ، والطبيعي أن يكون للعورة شكل مخجل مخل بالشرف ، وأن يكـــون لها رائحـة نجاسة (كرائحة العرق أو البول أو غيرها من افرازات الجســد السامة) ، ولكن أن تكون الرائحة طيبة معطرة فهذا هو الغريب ، لان الجسد في تلك الحالة يحتفظ في جوفـــه بالعرق والسموم ، فيصبح الجوف عفنا تفوح منه رائحة النجاسة ، أما الوجه فيظل نظيفا أبيض تكســـوه ملامح النبل وعراقة الاصل (وغيرهما من السمات الرفيعة التـي تظهر بوضوح على وجوه النبلاء أمثال سيدها) •

وتحرك وجه سيدها نحوهـا وهي واقفـة في ضوء

القمر . ظلت عيناها في عينيه سوداوين واسعتين مفتوحتين لا تغضان البصر . أراد أن يبصق في وجهها من شدة الغضب . لكنه كان قد تعود أن يكظم الغضب ، فأصبح الغضب لا يحرك في وجهه الا عضلة صغيرة عند زاوية أنفه ، تتقلص فجأة ، وتشد شفتيه في انفراجة ، تبدو للعين المجردة كالابتسامة .

لم يكن لديها موعد آخر فصعدت الى السيارة ، مرّت السيارة من أمام بيته الرئيسي في الزمالك . رأت سيدتها تطل من النافذة العالية المزركشة . كان رأسها بحجم الدبوس (بسبب الارتفاع الشاهق) ، لكنه رآها فأخفى وجهه بيده اليمنى وداس على البنزين بقدمه اليسرى فانطلقت السيارة ولم يره أحد . سار على مهل في شارع النيل واجتاز الكوبري ، فأصبح على مشارف حي بولاق ، حيث بيته الفرعي (كان لكل زوج محترم في ذلك الوقت بيت فرعي الى جانب البيت الرئيسي ، ويزيد عدد بيوته الفرعية كلما زادت درجته) .

وتجرد من ملابسه بسرعة (كعادة المشغولين بأمور هامة) ، ثم رفع قدمه ووضعها على طرف السرير ، وبقيت

القدم الثانية فوق الارض (كان قد تدرب عـلى الوقوف على ساق واحدة في سنوات الخدمة العامة) • تصـادف في هذه اللحظة أن حركت رأسها ناحيتـه فلم تجد آلة القتل وانما الجرح القديم المسدود • كان يمكن أن تتسع عيناها السوداوان في دهشة • لكن شيئا لم يكن يدهشها، فحركت رأسها ناحية الحـائط بغير اكتراث • رأت فـوق الحائط سيدتها بملابسها العسكرية داخل اطـار مذهب ، وعيناها شاخصتان فوق الكتلة العارية ، تتابعان حركتهـا بنظرة الحكام الوقورة المتجهمة ، وتلتقطـان الصور من جميع الزوايا (ملحوظة : حفظت هذه الصور في أرشيف المخابرات المركزية) •

وأصبح وجهها معروفا ، حين تطلّ من نافذة العربة تلتوي ناحيتها الاعناق حانية الرؤوس بطبيعـة الحال • وأصبح وجهها فوق الجدران ، في ناصية كل شارع ، حيث كانت تقف تنتظر ، وأحيانا حين يطول بها الانتظار ترفـع رأسها الى فوق ، وترى صورتها معلقة ، شفتاها منفرجتان في ابتسامة عريضة ، ومن بينهما (عند ركن الفم) ، خيط طويل أبيض من اللعاب الدافىء يجري صاعدا الى زاويـة الانف ثم يدخل في الركن بين الانف والعين •

وتمسح البلولة من فوق وجهها بكفها ، ثم تمسح كفها في الجدار ، وترتسم على الجدارِ الكف وخمسة أصابع آدمية ، تهبّ عليها نسمة الليل ، وتطلع عليها الشمس فتجف وتصبح بقعا سوداء بلون الدم القديم .

سقطت أشعة الشمس فوق عيني حميدو وهو نائم في وضع رأسي بجوار الجدار . فتح عينيه ورأى الكف والاصابع السوداء الممدودة . أصابعها كأصابعه والخطوط فوق كفها تشبه خطوطه . انفرجت شفتاه هاتفا : حميدة ! وشدّ آلة القتل بحذاء فخذه ، لكن رأى المفتاح الفضي اللامع يتدلى من بين أصابعها ، فأدرك انها سيدته ، وأخفى الآلة في جيبه في لمح البصر ، وتركها تتدلى مرتخية وراء فخذه ، ووقف في مكانه منتصبا ، عضلات ظهره مشدودة، وذراعه اليمنى مرفوعة ، وجفناه مرتخيان متدليان فوق عينيه كالحجاب .

حين ابتعد صوت العربة رفع جفنيه ، ورأى مؤخرة العربة المدببة تشقّ الظلمة ، ثم ابتلعتها الظلمة . ترك عضلات ظهره ترتخي ، وذراعه تهبط ، وشعر براحة ، فملأ صدره بهواء الليل ، وحاول أن يتذكر وجهه وهو

طفل ، وشكل ملامحه حين كان يبتسم أو يضحك ، فلم يتذكر شيئا . لم تكن هناك طفولة ولا ابتسامة ولا ضحكة.

سمع وقع قدميه الثقيلتين فوق الارض : يمين . شمال . يمين . شمال . لب . دب . لب . دب . الضربات البطيئة المنتظمة ، تتخللها مسافات من الصمت الاسود بلون الموت . سعل وبصق على الارض البصاق المدمم . سقطت الخيزرانة الرفيعة على ظهره ولسعته ، فأدرك انه عار وانه لم يمت بعد . فقد تفاؤله وبصق مرة أخرى . سمع الصوت الآمر المألوف فشدّ الآلة من الجراب الاسود . نظر بعين واحدة في الثقب ، وحدد النقطة في منتصف المسافة بين العينين . صاح الصوت الخشن : اضرب . ضرب .

سقط الجسد الطويل المعوج ، وفي منتصف جبهته البارز ثقب يجري منه خيط طويل من الدم ، يخترق العينين والخدين والانف والشفتين ويدور حول الذقن الصغيرة المستديرة كذقن الطفل .

لم يكن طفلا واحـــدا . وانما آلاف الاطفال أو ملايين ، أجسادهم سقطت فوق الاسفلت وفوق وجه كل منهم خيط طويل من الدم يجري مـن العينين الى الانف

والفم وبالعكس • والشمس سقطت فـــوق الاسفلت ، والسماء أصبحت زرقاء صافية وظهر فيها بوضوح الآلهة المكدسون الجالسون صفوفا ، ساقا فوق ساق ، يدخنون النرجيـــلة •

مدّ حميدو ساقه فارتطمت بساق أخرى • مدّ ذراعه فارتطمت بذراع أخرى • أصبح غارقا في بحر من الاجسام الميتة • بدأ يسبح بذراعيه وساقيه فـــي الخضمّ الكبير • توقف لحظة ليلتقط نفسه ، وتلفت حوله ليعرف أين هو أو من الذي أتى به الى هنا • لم يتذكر شيئا سوى انـــه كان طفلا ، وان قبضة يد قوية اندفعت في ظهره ، وقذفت به في البحر • رأى اليد مرسومة فـــوق الجدار • الكف الكبيرة ككف أبيه ، والاصابع متورمة مشققـــة كأصابع أمه • انفرجت شفتاه وهتف : أمي ! نظرت اليه أمه بعينيها السوداوين ، والطرحـــة السوداء علـــى رأسهـــا وعنقهـــا وكتفيها وبطنها •

كانت واقفة بقامتها الطويلة لا تتحرك وصدرهـــا العالي ثابت بحذاء رأسه • وضع رأسه على صدرها ، ودفن أنفه بين ثدييها • أبعدته أمه بيدها القوية ، فرفع رأســـه

اليها ، ورأى عيني أبيه الواسعتين تلمع فوق بياضهما الكبير الشعيرات الحمراء كالثعابين الرفيعة ، وسمع صوته الغليظ : العار لا يغسله الا الدم .

اقترب من أبيه ، وعيناه ثابتتان في عينيه لا ترمشان. ارتجفت الشعيرات الحمراء فوق البياض الكبير (الانسان يفزع اذا ما رأى عينا مفتوحة تنظر اليه دون أن ترمش . معنى ذلك انها تفحصه جيدا لتراه على حقيقته) .

تراجع أبوه خطوة الى الوراء فسقط ضوء المصباح على وجهه . رفع كفه الكبيرة وأخفى وجهه ، لكن الضوء كان يكشف جسده الطويل الضخم وهو واقف يسدّ الباب . نفخ ذؤابة الضوء فانطفأت ، وأصبحت الظلمة شديدة ، الارض كالجدار كالسقف . فتعثرت قدمه الكبيرة الحافية في العتبة المرتفعة بعض الشيء . لكنه استعاد توازنه ، ووثب كالفهد على أطراف أصابعه المطاطية ، ثم سار على مهل وحذر متخطيا شيئا يشبه البلغة (الحذاء بلغة أهل الريف) .

صرخ حميدو بصوت الاطفال ، لكن جسده لم يكن جسد طفل . وامتدت يده في جيبه الطويل كالجراب ،

وشدّ الآلة المعدنية الصلبة . حدد النقطـــة في منتصف المسافة بين الدائرتين البيضاوين تلمـــع فوقهما الخيوط الحمراء . كتم نفسه وأغمض عينيه وضغط على الزناد .

فتح عينيه ورأى الجسد الطويل المعوج ممددا تحت الشمس . عيناه الواسعتان مرفوعتان الى أعلى وذراعــه اليمنى متدلية الى جواره تقبض على شيء . فتح حميدو أصابعه ، فسقط القرش في كفه . أغلق عليه يده ، وذهب الى الدكان ليشتري تبغا . اشترى قطعـــة من الحلوى ووضعها في فمه . استدار ليعـــود ، لكن البائع طالبــه بالقرش . فتح يده المغلقة فلم يجد شيئا . أمسك البـــائع العصا وجرى خلفه .

كان جسده خفيفا صغيرا يطير في الهواء كأجســـاد العصافير ، وكان من الممكن أن يسبق البـــائع (لو كان عصفورا) ، لكنه أحس فجأة (وكما يحدث في الاحلام) ان جسده أصبح ثقيلا كأنه تحجر عـــلى شكل تمثال ، تسمرت قدمـــاه في الارض ، وثبتت ذراعاه بالحديـــد والاسمنت ، والفخذان أصبحتا من الرخام ، وكل فخذ شدّ الى ناحية ، ودقّ في كل قدم مسمار كالمصلوب، وارتفعت

العصا الرفيعة من الخيزران في الجو ، طويلة ورفيعة ومعوجة كالقوس ، ثم هوت على شيء طري ساخن كاللحم الحي •

* *

حين فتح حميدو عينيه، كان ضوء النهار يملأ الغرفة• وأيقن ان ما رآه لم يكن الا حلما ، فقفز من فوق الحصيرة وجرى الى الشارع • كان أصدقاؤه من أطفال الجيران يلعبون كعادتهم في الحارة الممتدة أمام البيوت الطينية ، يمسك كل منهم يد الآخر ويصنعون دائرة تلف وتدور ، وصوت غنائهم الحاد الرفيع يدور مع حركة أجسادهم في أغنية واحدة ، لها مقطع واحد ، يتكرر في دورة متصلة لا تنقطع :

حميدة ولدت ولد
سمته عبد الصمد
سابته على الاتايا
خطفت راسه الحدايا
حد يا حد يا بوز القرد

ولانهم يدورون ويغنون بغير انقطاع ، فلا يمكن للاذن أن تعرف بداية الاغنية من نهايتها ، ولا يمكن للعين

أن تعرف بداية حركتهم من نهايتها ، لانهـم أطفال ، ولان الاطفال حين يلعبون يمسكون بأيديهم بعضهم بالبعض على شكل دائرة مغلقة .

* *

ولكن لا بد لي أن أنهي القصة ، فكل شيء له نهاية، لكن نقطة النهاية في هذه القصة لا أستطيـع تحديدها . فالنهاية لا تنتهي بنقطة محددة ، لان النهاية في حقيقـة الامر غير موجودة ، أو ان النهاية والبداية يتصـلان في خيط واحد دائري من الصعب تحديد أوله من آخره .

ومن هنا الصعوبة في انهـاء شيء ، وبالاخص اذا كان قصة حقيقية ، أي قصة صادقة كل الصدق ، دقيقـة غاية الدقة . والدقة تقتضي من الكاتب أو الكاتبة أن يراعى كل حرف ، وألا يهمل أي نقطة . ان نقطة واحدة قد تقلب كيان معنى من المعاني ، وبالذات في اللغة العربية . الذكر قد يصبح أنثى بسبب نقطة أو شرطة ، والبعل يصبح بغلا ، والوعد وغدا وهكذا .

ومن هنا أهمية النقطة الدقيقة المحددة . أي النقطة الهندسية . وبمعنى آخر ، لا بد من دقة علمية في العمل الفني الجيد . لكن العلم يفسد الفن ، وهذا الافساد هـو

بالضبط ما أردته في هذه القصة لتصبح جيدة ، أو لتصبح حقيقية وصادقة صدق الحياة الحية. لان الحياة قد تكـون ميتة في بعض الاحيان ، كالانسان الذي يمشي على الارض دون أن يعرق ، أو دون أن يبول ، أو دون أن ينبعث مـن جسده شيء فاسد . لا يمكن للانسـان الحي أن يحبس فساده في داخله ، والا مات ، وأصبح وجهه أبيض ناصع البياض ، وجوفه عفنا عفونة الموت .

خيل الي (والخيال في تلك اللحظة كان حقيقة) ، ان طفلا من الاطفـال المنشدين المتماسكين بالايدي على شكل دائرة تدور ، خرج فجأة من الدائرة . رأيت جسمه الصغير ينفصل عن الخط الدائري المنتظم في دورانه كنقطة لامعة محددة . كنجم فقد توازنه الابدي فانفصل عن الكون اللانهائي ، واندفع بحركة عشوائية سريعة متوهجا بشعلة كالشهب قبل أن يحترق .

وباستطلاع غريزي تابعت عيني حركتـه . وحين توقف كان قد أصبح بالقرب مني . ورأيت وجهه . لم يكن طفلا ذكرا . كان أنثى . لم أعرف عـن يقين انها أنثى ، فوجوه الاطفال كوجوه العجائز ليس لها جنس .

الوجه (للغرابة الشديدة) لم يكـــن غريبا علي • كان مألوفا بدرجة أثارت دهشتي الى حد عدم التصديق • فليس من المعقول أن يخرج الانسان من بيته في الصبـــاح ذاهبا الى عمله ، فاذا به يصطـــدم بشخص آخر ، ما أن يرفع وجهه اليه حتى يرى وجهه هو وليس أي وجه آخر •

أعترف ان جسدي ارتج • نوع من الذعر شديد ، يشلّ قدرة الانسان على التفكير • ومع ذلك فكرت : لماذا يذعر الانسان حينما يرى وجهـــه وجها لوجه ؟ ربما هي الغرابة الشديدة ، أو ربما هي الالفة الشديدة • حينئـــذ يختلط على الانسان كل شيء ، وتصبح الاشياء المتناقضة متشابهة الى حد التماثل ، فالاسود يصبح أبيض ، والابيض أسود • ومعنى ذلك أن يواجه الانسان بعينيه المفتوحتين حقيقة انه أعمى •

ـــ تمت ـــ











١٧٥ قرش مصري